جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بالمنوفية

الظَّعينَة
في
شعر العصْر الجاهليّ

الدكتوره

درّيّة عبد الحميد حجازي

رئيس قسم التربية الأساسيّة
كلّيّة المتطلّبات الجامعيّة والإرشاد الأكاديميّ
جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

المُقَدِّمَة

يُعدّ موضوع "الظَّعن" في العصر الجاهليّ؛ نتاج صراع الإنسان مع البيئـــة الصّحراويّة من ناحية، وصراع الإنسان مع أخيه الإنسان من ناحيةٍ أخرى.

فصراع الإنسان مع البيئة؛ نلمسه في حياة البداوة، الّتـــي تعتمـــد الرّعـــي، وتربية الإبل والأغنام، وتفرض على أهلها الرّحلة الدّائمة والاضطراريّة؛ مـــن مناطق الجفاف، والجدْب؛ حيث تقلّ الأمطار، أو تنعدم – مهدّدة ساكني الباديـــة بالموت– إلى مناطق أخرى؛ بحثاً عـــن المـــاء، والكـــلأ، والخِـــصْب؛ حيـــث الاستقرار.

فهي إذن رحلة من الموت إلى الحياة، ومن الجدْب إلـــى الخـــصْب، ومـــن الأطلال "الخراب" إلى العمار.

وصراع الإنسان مع الإنسان؛ نلمسه في كثـــرة الحـــروب، والنّزاعـــات، والخصومات بين القبائل؛ بسبب المكان أحياناً، أو لسبب آخر؛ وهو مـــا عُـــرف "بأيّام العرب وأوابدها"؛ حيث أصبح سفك الدّم والقتل سُـــنَّةً، وحيـــاة مُعاشـــة، ومجالاً للفخر.

ولمّا كانت المرأة هي العنصر الأضعف في خضمّ هذا النّزاع؛ ممّا يجعلهـــا أكثر عرضةً للسَّبْي، والوقوع في يد المنتصر؛ فقد حَرَصَ العربيّ على حمايتها، والاستماتة في الدّفاع عنها، والمحافظة عليها، وعدَّ سبْيَها عاراً ما بعده عار.

ووجد العربيّ في الجَمَل خير مُعينٍ له، على مواجهة ظروف هـــذه الحيـــاة القاسية؛ فهو الحيوان الوحيد القادر على تحمّل الجوع والعطش مسافات طويلة،

فاعتمد عليه في حلّه وترحاله، والوصول إلى غاياته، فشبّهه بالسّفينة، وأطلق عليه لقب "سفينة الصّحراء"، وابتدع "الهودج"، وخصّ المرأة به؛حيث تُحمل فيه، في السّلم أو في الحرب، وسمّاه "الظَّعينة"، ثمّ قيل للمرأة داخله "ظعينة"، ثمّ قيل لزوجة الرّجل: ظعينته.

وقد صوّر لنا الشّعر الجاهليّ، هذه الحياة بمظاهرها كلّها؛ ومن ذلك رحلة الظَّعائن؛ الّتي تعدّ محوراً أساساً في بنية القصيدة الجاهليّة، وليست المقدمة الطلليّة- كما هو شائع- الّتي كان الشّاعر يستهلّ بها قصيدته؛ فرأيت أن الصّورة الشّعريّة الأساس هي **رحلة الظّعائن** التي أفضت بالشّاعر إلى الوقوف بالطّلل. فاللّحظة الّتي بدأ فيها موكب المحبوبة يتحرّك؛ كان هو الوازع الذّي حرّك مشاعره، وهيّج عواطفه؛ وأثار أحزانه، والتهبت جوانحه. فوصف الشّاعر لرحيل موكب المحبوبة؛ تبلور فيه الآهات، والحبّ، والحنين، والشّوق، والحزن؛ فتابع موكبها بعينين زائغتين؛ تارة ينظر إلى الهودج، وثانية إلى ستائره؛ متمنيّاً أن تنظر إليه فتعرف أنّه يتبعها، وأخرى يغبط الهواء الّذي يداعب أستار هودجها، ثمّ يطلق ريشته؛ لتصبغ بألوانها الزاهيّة الهودج، ويبدع في رسم صورة الموكب، إلى أن اختفى وسط الجبال والرّمال؛ فما كان أمام الشّاعر إلا الوقوف على الأطلال؛ ليبكي، ويشكو، ويخاطب الرّبع، ويستوقف الرّفيق. وهذا ما أردت إثباته في البحث.

إنّ قصّة الوقوف على الطّلل تابعة لوداع المحبوبة في موكبها، ولذا انصبّ اهتمام الباحثين لدراسة المقدّمة الطّلليّة في القصيدة الجاهليّة على التّابع متجاهلين المتبوع.

وهذا هو الغرض الأساس من هذه الدّراسة، وهو بيان صورة الظَّعينة في القصيدة الجاهليّة؛ من خلال مجموعة من النّماذج المختارة.

وقد جعلت هذه الدّراسة في مبحثين:

الأوّل: تحدّثت فيه عن النّظام الاجتماعيّ في العصر الجاهليّ، وعن مكانـــة المرأة في ذلك العصر؛ فهُما المقدّمة الطّبيعيّة الّتي نتجت عنها ظاهرة الظَّعينـــة فيما بعد.

الآخر: تناولت فيه؛ معنى الظَّعينة، والهودج، والعلاقة بينهما، ثـــمّ أتبعـــت ذلك بنماذج من الشّعر الجاهليّ؛ الّذي يصوّر موقف الـــشّاعر (الإنـــسان) مـــن الظَّعينة، وملابسات ظَعنها.

سائلة الله (ﷻ)؛ التّوفيق، والسّداد، والعون..

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين..

دريّـــة حجـــازي

المبحث الأوّل

١- النّظام الاجتماعيّ في العصر الجاهليّ:

النّظام الاجتماعيّ لعرب العصر الجاهليّ؛ هو حصيلة التّفاعل بينهم وبين البيئة الصّحراويّة الّتي تحيطُ بهم، والّتي تُعدّ العامل الأوّل في تشكيل ظواهر حياتهم، وتوجيهها؛ ومن تلك الظّواهر؛ "**ظاهرة الظَّعْن**"؛ **حيث تُعدُّ إحدى نتاجات البيئة البدويّة.**

لقد فرضت ظروف المعيشة القاسية في أرض صحراويّةٍ قاحلةٍ -تخصِب سنةً، وتجدب سنواتٍ؛ شحيحةٍ بالماء، وتنعدم فيها الأنهار الجارية- على ساكنيها نمطًا من الحياة لا يعرف الاستقرار؛ فهم في حركة تنقّل دائمة، يتتبّعون مواطن الماء والكلأ، لهم ولأنعامهم.

وقد أدّت تلك الظّروف إلى حالة من **الصّراع الدائم**، والنّزاع بين القبائل؛ وبخاصّة في زمن الجدْب؛ حيث السّيطرة للأقوى.

ولم يكن هذا هو السّببَ الوحيدَ لنشوب الحروب بينهم؛ فقد كانت تنشب لأسباب تبدو لنا تافهةً؛ لا علاقة لها بقسوة الحياة، وقد تنشب دون أسباب، وقد تكون الغاية من بعض الغارات بينهم؛ **سبْي النّساء**؛ فهو العار الّذي ما بعده عار؛ ذلك أنّ المرأة لدى العربيّ شرفُه، وعِرضُه، ورمزُ عزّته؛ فإذا أرادت قبيلة أن تلطّخ كرامة أخرى؛ فعليها أن تسبي بعض نسائها. وكانت تلك الحروب من الكثرة؛ حتّى أصبحت الأيّام لديهم سلسلة من الحروب، عُرفت بـ "أيّام العرب"؛ "فهم إمّا قاتلون وإمّا مقتولون؛ لا يفرغون من دمٍ إلاّ إلى دمٍ"(١).

وفي هذا المعنى يقول دُريْد بن الصّمّة:

يُغار علينا واترين فيُشْتفى * بنا إنْ أُصِبنا أو نغيرُ على وَتْرِ

قَسَمْنا بذاك الدّهر شَطرين بيننـــا * فما ينقضي إلاّ ونحنُ على شطرِ[٢]

ومن حروبهم المشهورة؛ حرب البسوس[٣]؛ الّتي اشـــتعلت بـــين قبيلتـــي بكـــر وتغلب، وكان سببها اعتداء كليب –سيّد تغلب– على ناقة للبسوس، خالة جسّاس بن مرّة سيّد بني بكر؛ إذ رمى ضرعها بسهم، فما كان من جسّاس إلا أن قتـــل كليباً غيلة؛ لتدور بين القبيلتين حرب طاحنة؛ قيل إنّها دامت أربعين سنة.

ومن تلك الحروب؛ حرب داحس والغبراء[٤]، بين قبيلتي عـــبس وذبيـــان، وكان سببها سباقاً بين فرسين، على رهان؛ فسمّيت باســـميهما، وكانـــا لـــسيّدي القبيلتين: قيس بن زهير العبسيّ، وحذيفة بن بدر الفزاريّ، وأوشك داحـــس أن يفوز؛ غير أنّ رجلاً من "أسد" كان قد كمن له، فاعترضه ونفّره، وبذلك ســـبقته الغبراء؛ وأبى قيس أن يعترف بهذا السّبق، وحدث صدامٌ بين الفريقين، فحـــرب دامت سنواتٍ طويلةً، انضمّ إليها عدد من الأحلاف؛ حتّى تدخّل سيّدان من ذبيان هما: هرم بن سنان، والحارث بن عوف، وتحمّلا دِيَات القتلى، وأصـــلحا بـــين المتحاربين، وقد نظم زهير بن أبي سلمى في هذه الحرب معلّقته، ومنها قوله:

يمينًا لنِعم السَّيّدان وُجِدتُمـــــــــا * على كـــــلّ حالٍ مِن سحيلٍ ومُبْرَمِ

تداركْتُما عبســـاً وذُبْيـــان بعـــدما * تَفانوْا ودقُّوا بينهم عـــطرَ منشَمِ[٥]

وقد أفرزت هذه الحياة الحربيّة، أعرافًا قبليّة، تحكم أفراد القبيلـــة، وتحـــدّد واجباتهم تجاه القبيلة، وحقوقهم عليها، وأصبح قانون العصبيّة والثـــأر؛ شـــريعةً مقدّسةً لديهم، فالعصبيّة للقبيلة تفرض على الفرد الولاء المطلق لها، والالتـــزام بقوانينها، وأعرافها، وتحالفاتها، والدّفاع عن سيادتها وشرفها، وتلتـــزِم القبيلـــة بتأمين الحماية له من أيّ خطر يهدّده؛ ما دام ملتزماً بقوانين القبيلة، والثّأر لـــه إذا تطلّب الأمر ذلك.

وكان من الطّبيعيّ – مع سيادة هذا القانون– أن يكثر القتــلُ، وأن تتجــدّد حالات الثّأر مع كلّ قتيلٍ جديد، وأن تستمرّ النّزاعات، ويصبح همُّ كــلّ قبيلــة الانتصار لقتلاها، وتمريغ وجه الأخرى بالتّراب، والنّيْل منها؛ بأيّة وسيلة تقــدر عليها، وإلحاق العار بها، وكان من ذلك؛ **سبْي النّساء**.

إنّها الحرب الّتي يصطلي بها الجميع؛ مَن هو محبٌّ لها، ومن هــو كــارِهٌ؛ الصّغير والكبير، الرّجل والمرأة.

وفي هذا المعنى يقول زهير بن أبي سُلمى:

إذا فزعوا طاروا إلــى مستغيثهم * طوالَ الرّماح لا ضِــعافٌ ولا عُزْلُ

فإن يُقْتلــوا فيُــشْتفى بــدمائهم * وكانوا قديماً مِنْ مناياهم القتــلُ(٦)

عادات حميدة:

وإلى جانب ظاهرة العصبيّة، وتمجيد الثّأر، فقد بعثت فــيهم هــذه الحيــاة مجموعةً من الخلال الكريمة؛ مثل: الكرم، والوفاء، والشّجاعة.

وكانوا يعظّمون الوفاء بالوعد، ويتغنّون بالأمجاد، والأنفة، والإباء، والعزّة، والكرامة، والشّجاعة، والفروسيّة، **والاهتمام بالمرأة وإجلالها**، وينكــرون أشــدّ الإنكار الهوان والذّلّ، وخير ما يمثّل هذه الصّفات إقدام عمرو بن كلثوم، علــى قَتْلِ عمرو بن هند، – حينما علم **بإهانة أمّه** في بلاطه؛ فكان ذلك من مفاخرهم الّتي تغنّى به شعراء تغلب كثيراً.

وفي هذا الحادث يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجْهلَــــنْ أحــــدٌ علينــــا * فنجهــل فــوق جهــل الجاهلينــا

بأيّ مشيئةٍ عمرَو بــــــن هنْــدٍ * نكــونُ لقيْلِكــــــم فيهــا قطينــا

تهدّدُنــــا وتوعــدنا رُويْــــدًا * متــــى كنّــــا لأمُّــك مقْتوينــــا(٧)

٢- مكانة المرأة في المجتمع الجاهليّ:

ولعلّ السّؤال هنا: كيف انعكست هذه الحياة على المرأة، وألقت بظلالها عليها؟ وما مكانتها في هذا المجتمع؛ الّذي تناوشته الحروب، والنّزاعات الدّائمة، وهدّدته سنوات الجدب، وقلّة موارد الصّحراء، وظروف الحياة القاسية، بالموت جوعًا؟

كان في المجتمع الجاهليّ "نوعان من النّساء: إماء وحرّات، وكانت الإماء كثيرات، وكان منهنّ؛ مَن يتّخذن الأخدان، وقينات يضربن على المزهر في حوانيت الخمّارين، وجوارٍ يخدمن الشّريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام"(٨).

وأمّا الحرّة؛ فكانت تتمتّع بمنزلة سامية، وتدلّ الأخبار الّتي بين أيدينا أنّ بنات الأشراف والسّادة؛ كنّ يخترن أزواجهنّ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهنّ(٩).

وقد بلغ من بعضهنّ مَنْ كانت تُجير، وتحمي من يستجير بها، على نحو ما حدث مع السُّليك بن السُّلكة مع فكيهة، وهي امرأة من بني عُوارة(١٠).

وكانت النّساء يصحبْن الرّجالَ في الحروب، ويشدُدْن من عزائمهم، بالأناشيد الحماسيّة، وفي تلك الصُّحبة ما يجعلهم يثبتون في المعركة، ويستبسلون في الدّفاع عن أعراضهم، فلم يكن لدى العربيّ عارٌ أكبر من أن تُسبى امرأة من نساء القبيلة؛ فهو العار الّذي ما بعده عار، لا يغسله إلاّ إنقاذها، وإعادتها إلى قبيلتها مكرّمة معزّزة.

ولنا في حادثة عمرو بن كلثوم وأمّه؛ مع عمرو بن هند؛ خير شاهد على ما كانت تتمتّع به المرأة في العصر الجاهليّ، من المكانة العالية، والإكبار.

ومن الدّلائل على تلك المكانة الرّفيعة، أنّ المرأة كانت موضوع الحبّ والشّوق والوجد؛ حتّى إنّنا نجد قبيلة عربيّة قد عُرِفت بهيامها بالنّساء، وهي قبيلة عُذْرة.

ومنها أنّها احتلّت المقدّمة في قصائد الشّعراء الجاهليّين المشهورة؛ بل لقد أصبح تصدُّرُها القصيدة عُرفًا؛ لا تكتمل القصيدة إلا به.

فهذا طرفة يفتتح معلّقته بذكر خولة:

لخولة أطـــلالٌ ببرقة ثهمـــــد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(١١)

وهذا زهير يفتتح قصيدته بذكر أمّ أوفى، فيقول:

أمِنْ أمّ أوفـــــى دِمْنة لـــم تكلَّمِ * بحوْمانـــة الدّرّاج فالمتثلَّـــــمِ(١٢)

وهذا عنترة يفتتح معلقته بذكر عبلة والديّار، فيقول:

يا دار عبـــــلة بالجواء تكلَّمي * وعِمي صباحًا دار عبلة واسلمي(١٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً.

وكان العرب لا يتغاضون عن الفحش في القول، والخلاعـــة، والمجـــون؛ على نحو ما نجد عند امرئ القيس؛ ولذلك فقد طرده أبوه؛ بسبب خلاعته.

ومن الدّلائل على مكانة المرأة أيضاً؛ تسمية بعض القبائل بأسماء المـــرأة؛ مثل: مزينة، وبجيلة، وباهلة.

كما أنّ من الرّجال من كان يحمل اسم أمّه؛ مثل: عمرو بن هند، وعمـــرو بن كلثوم، والمنذر بن ماء السّماء، وشيوع مفردات؛ مثـــل: الـــبطن، والفخـــذ، والظّهر، والرّحم، في لغتهم. ومنها؛ منحهم الآلهة لديهم أسماء مؤنّثـــة (اللّـــات، والعزّى، ومناة).

كما أنّ المرأة – بدوْرها– كانت متمسكّة بالأخلاق الكريمة؛ مترفّعـــة عـــن كلّ ما يشينها، أو يحطّ من قدْرها عند أهلها وعشيرتها. وقد اشتهرت من النّساء في الجاهليّة كثيرات؛ فالخنساء بالشّعر(١٤)، وجهيزة قطعت قول كـــلِّ خطيـــب، وخديجة بنت خويلد بالتّجارة، وخولة بنت الأزور بالشّجاعة والفروسيّة، وخالدة

بنت هاشم بن عبد مناف، وصحر بنت لقمان بن عاد؛ اشتهرتا بالحكمة والـذّكاء والكمال، وكانت العرب تتحاكم عندهنّ في المشاجرات والأنساب.

عادات ذميمة:

وإلى جانب هذه المكانة الرّفيعة الّتي حظيت بها المرأة؛ كانت هناك بعـض العادات المذمومة؛ الّتي تنشأ عادة في المجتمعات البدويّة البدائيّة؛ منها: حرمان المرأة من الميراث، وحرمانها من الزّواج بعد مـوت زوجهـا، والجمـع بـين الأختين، وزواج الشّغار، وزواج الابن من امـرأة أبيـه بعـد موتـه، وتعـدّد الزّوجات دون قيْد، إلى أن جاء الإسلام فحرّم هذه العادات كلّها.

وكان من عاداتهم؛ وأد البنات؛ خَشْية العار، أو الفقر، وهو ما أخبـر عنـه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[١٦].

ولعلّ بعضهم قد بالغ في الحديث عن هذه الظّـاهرة، والحقيقـة أنّ هـذه الظّاهرة لم تكن بذلك الانتشار الّذي تُصوّر به، وليست كلّ القبائل كانـت تئـد؛ وإلا فكيف ولد من ولد من رجال القبائل!

فقد كانت ظاهرة؛ لكنّها محصورةً في قلّة من الفقراء، والضّعفاء، وشديدي الغيرة؛ بل لقد كان إلى جانب ذلك رجالٌ مِن ذوي المروءة والكـرم؛ يعملـون على الحدّ منها، وإنقاذ الموءودات، ومدّ يد العون إلى أهليهنّ؛ منهم: غالب بـن صعصعة؛ الّذي عُرف في الجاهليّة بمحيي الموءودات.

وليس من الغريب أن يفضّل العربيّ الموالِيدَ الذّكور على الإناث، في بيئـة تحتاج إلى جهد كبير في كسْب الرّزق، وفي مجتمعٍ يقوم أساسه على الحروب،

ويحتاج إلى المقاتلين؛ فالأولاد هم محاربو المستقبل، وفرسان القبيلة، والمدافعون عن سيادتها وأعراضها؛ بينما تحتاج الأنثى إلى من يحميها في حلّها وترحالها؛ حتّى لا تتعرّض للسَّبي، ومن هنا عرف العرب لقب "**حامي الظّعينة**"؛ وهو الفارس الّذي يرافق الظَّعينة، ويقوم بحراستها، وتوفير الأمْن لها في رحلتها؛ وممّن حمل هذا اللّقب ربيعة بن مُكَدَّم(١٧).

وهكذا، يمكننا القول إنّ المرأة العربيّة الحرّة؛ كانت تحتلّ لدى العربيّ في العصر الجاهليّ – بصورة عامّة– موضع القلب من الجسد؛ ينتسب إليها، ومن أجلها يُشعل حربًا، ويعقد تحالفًا، ويصحبها في حروبه خوفًا عليها، ويستميت في الدّفاع عنها، ولا يرتاح له بالٌ إن أصابها مكروه، وأنّ ما وقع عليها من صور الظُّلم كان نتيجةً طبيعيّةً لحياة البداوة، والصّراع مع البيئة، وأنّ ظاهرة الوأد؛ الأشدّ إيلاماً، كانت محصورةً في فئةٍ قليلةٍ من ضِعاف النّاس، لم تستطع مواجهة الفقر، وقسوة الحياة، والوقوف في وجه الخطر الّذي يهدّدها بصورة دائمة؛ وكذلك في فئة شديدة الغيرة حدّ الإفراط؛ لم تتحمّل أن تعيش في عار بناتها؛ وهنّ يُسْبَيْن من غُزاة ديارهم.

المبحث الثاني

الظَّعْن – الظَّعينة- الهَوْدج

١ – الظّعينة في اللّغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور(١٨):

ظَعَنَ، يظْعَنُ، ظَعْنًا، وظَعَنًا بالتّحريك، وظُعوناً: ذهب وسار، وقُرِئ قوله تعالى: "يوم ظَعْنِكُم"[سورة النّحل: ٨٠]، و"ظَعَنِكُم"، وأظْعَنَه هو: سَيَّرَه. وأنشد سيبويه:

الظّاعِنون ولمّا يُظْعِنوا أحدا * والقائلون لمن دارٌ نُخَلّيها

والظَّعْن: سير البادية لنَجْعَةٍ، أو حضورِ ماءٍ، أو طلب مرْبَعٍ، أو تَحَوُّلٍ من ماءٍ إلى ماءٍ، أو من بلدٍ إلى بلد، وقد يُقال لكلّ شاخصٍ؛ لسفر في حجٍّ؛ أو غزْوٍ، أو مسيرٍ من مدينة إلى أخرى: ظاعِن، وهو ضدّ الخافض، ويقال: أظاعِنٌ أنت أم مقيمٌ؟ والظُّعْنَة: السَّفرة القصيرة. والظَّعينَة: الجمل يُظْعَن عليه.

والظَّعينَة: الهَوْدج تكون فيه المرأة، وقيل: هو الهَوْدج كانت فيه، أو لم تكُن.

والظَّعينَة: المرأة في الهَوْدج؛ سُمِّيت به على حدّ تسمية الشّيء باسْم الشّيء؛ لقربه منه.

وقيل: سُمِّيَتْ المرأةُ ظَعينةً؛ لأنّها تظْعن مع زوجها، وتقيمُ بإقامته؛ كالجليسة، ولا تُسَمّى ظعينةً إلا وهي في هوْدج.

وعن ابن السّكيت: كلّ امرأةٍ ظعينةٌ في هودج أو غيره، والجمع: ظَعـائنٌ، وظُعْنٌ، وظُعُنٌ، وأظْعان، وظُعُنات، (الأخيرتان جمع الجمع)؛ قال بشر بن أبـي خازم:

لهم ظُعُناتٌ يهتَدين بـرايةٍ * كما يستقِلُّ الطّائرُ المـتقلِّبُ

وقيل: كلُّ بعير يوطأُ للنّساء فهو ظَعينة؛ وإنّما سُمِّيَتْ النّساء ظعائن؛ لأنَّهُن يَكُنَّ في الهوادج. يقال: هي ظعينتُهُ، وزوجهُ، وقعيدتهُ، وعِرْسُهُ.

وقال اللّيث: الظّعينة الجملُ الّذي يُركَب، وتسمّى المـرأة ظَعينـة؛ لأنّهـا تركبه. وقال أبو زيد:

لا يقال حُمولٌ ولا ظُعُنٌ إلا للإبل الّتي عليها الهوادج، كان فيها نساءٌ أو لم يكن. والظّعينةُ: المرأة في الهوْدج، وإذا لم تكن فيه فليست بظَعينة. قال عمـرو بن كلثوم:

قفي قبـل التّفرُّق يا ظعينا * نُخبِّرك اليقـينَ وتُخْبريـنا

قال ابن الأنباريّ: الأصل في الظّعينة المرأة تكون في هوْدجها، ثـمّ كثُـر ذلك حتّى سمّوا زوجةَ الرّجل ظعينة. وقال غيره: أكثر ما يقال الظّعينة للمـرأة الرّاكبة، وأنشد قوله:

تبصَّر خليليّ هل ترى من ظعائن * لميّة أمثال النّخيل المخارفِ

قال: شبّه الجمال عليها هوادج النّساء بالنّخيل. وفي حـديث حنـين؛ فـإذا بهوازن على بكرة آبائهم؛ بظَعنهم، وشائهم، ونعمهم. الظُّعُن: النّساء، واحـدتها ظَعينة، قال: وأصل الظّعينة الرّاحلة الّتي يرحل ويُظْعن عليها؛ أي يُسار.

وقيل: الظَّعينة المرأة في الهوْدج، ثمّ قيل للهودج بلا امرأة، وللمـرأة بـلا هـوْدج: ظعينة..

وأظْعَنَتْ المرأةُ البعيـــر: ركبتْه. وهذا بعير تظْعنه المرأة؛ أي تركبـــه فـــي سفرها، وفي يوم ظعنها. والظَّعون من الإبل: الّذي تركبه المرأة خاصّة. وقيل: هو الّذي يعتمل ويحتمل عليه. والظَّعّان والظَّعون: الحبْل يُشدّ به الهودج، وفـــي التّهذيب: يُشَدُّ به الحمل.

والظَّعْنة: الحال كالرّحلة، وفرسٌ مِظْعان: سهلة الـــسّير، وكـــذلك النّاقـــة. وظاعِنة بن مُرٍّ: أخو تميم، غلبهم قومُهم، فرحلوا عنهم، وفـــي المثـــل: علـــى كُـــــرْهٍ ظعنت ظاعِنة.

٢- الهَـــوْدج:

ونستدلّ من هذه المعاني على أنّ الظّعينة (المرأة) والهودج؛ هما وجهـــان لشيء واحد، وأنّ العلاقة بينهما علاقة متّصلة، فالكلام عن واحد منهمـــا؛ هـــو كلام عن الآخر.

كما نستدلّ منها؛ على اهتمام العربيّ بالمرأة، والعمل على تـــوفير وســـيلة النّقل الملائمة لها، فكان إبداع الهودج؛ حيث يوفّر لها الرّاحة والأمن؛ فهو فـــي مجمله شبيه بالمظلّة الّتي تقي مـــن بـــداخلها العوامـــل الخارجيّـــة، الطّبيعيّـــة والبشريّة: فالطّبيعيّة مثل البرد والرّيح، وحرارة الشّمس، والبشريّة، رؤية النّاس لمن بداخله، أو انكشاف من بداخله بسبب الرّيح.

كما يوفّر تصميم الهودج للرّجل الشُّعور بأنّ عِرضَه وشَرَفَه مُصَانان، وفي منأىً عن نظرات العيون.

والّذي يظهر من شكل الهودج أنّـه صُنِع أساساً لتحقيق السّتر للمرأة أثنـاء ركوبها على البعير، ومراعاة الأعراف البدويّة؛ ومنها قلق الغيـــرة، والحـــرص على الشّرف لدى الرّجل، ونفور العربيّ من التّعرّض لامرأته بوصْفٍ أو كلام. فالمصادر تُشير إلى أنّ المرأة في الجاهليّة كانت محتجّبة؛ لا يظهـــر منهـــا إلا

وجهها، وأنّها كانت تلزم خِدْرها؛ لا تخالط الغرباء، وهذا أحد الأسباب الّتي جعلت الغزل في الشّعر الجاهليّ قليل نسبيّاً؛ وممّا استُدِلّ به على ذلك قول امرئ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤُها * تمتَّعتُ من لهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ(١٩)

وما أروع لفظَ امرئِ القيس هذا "وبيضة خدر"، وما أجمله! لا يدع متذوّقه أن يتجاوز التّعليق عليه؛ لجماله، ورقّته، وعذوبته! ولا أجد أجمل من تعليق الرّافعيّ المبدع (رحمه الله) على هذا اللّفظ اللّطيف الرّقيق المعبّر؛ حيث يقول: "الكناية عن الحبيبة "بيضة الخدر" من أبدع الكلام، وأحسن ما يؤتى العقل الشّعريّ، ولو قالها اليوم شاعر في لندن أو باريس بالمعنى الّذي أراده امرؤ القيس؛ لاستُبدعت من قائلها، ولأصبحت مع القُبلة على كلّ فمٍ جميل؛ بل هم يمرّون في بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة، فيكنّون عن البيت الّذي يتلاقى فيه الحبيبان "بالعشّ"، وما يُتّخذ العش إلا للبيضة. إنّما عني الشّاعر العظيم أنّ حبيبته في نعومتها، وترفها، ولين ما حولها، ثمّ في مسّها، وحرارة الشّباب فيها، ثمّ في رقّتها، وصفاء لونها، وبريقها، ثمّ في قيام أهلها وذويها عليها، ولزومهم إيّاها، ثمّ في حذرهم وسهرهم، ثمّ في انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها، وبجملة القوّة إلى حياطتها والمحاماة عنها – هي في كلّ ذلك منهم، ومن نفسها؛ كبيضة الجارح في عشّه، إلا أنّها بيضة خدر"(٢٠).

روعة أخّاذة، وإبداع فريد! فسبحان من وهبه "وحيَ القلم"!

وممّا استدلّ به أيضاً؛ قول عنترة:

رفعوا القبابَ على وجوهٍ أشرقت * فيها؛ فغيّبت السّهى في الفرقد(٢١)

وقول الأعشى:

لم تمش ميلاً، ولم تركب على جمل * ولا ترى الشّمس إلا دونها الكِلَلُ(٢٢)

وغيرها من الأبيات التي تدلّ على أنّ النّساء كانت تُحْجَب، وتُسْتَر في خدوره.ا

وهذا كان أحد الأسباب الّتي قلّلت من الغزل في الشّعر الجـاهليّ، وسـبب آخر؛ يعود إلى غيرة العرب الشّديدة على العـرض -كمـا هـو معـروف-، ونفورهم من ذكر أوصاف نسائهم في شعر، أو نثر، أو قالة؛ تلوكـه الألـسنة، وتتناقله الرّواة.

وكان ممّا يناسب المرأة؛ تزيين الهودج بالألوان والثّياب المزخرفة الجميلة، وفي ذلك دلالة على الوجاهة، والوضع الاجتماعيّ للظّعينة.

ونستدلّ من هذه المعاني على أنّ المرأة لم تكن تسافر وحدها؛ بـل كانـت دائماً في صُحبة زوجها، أو أهلها ورعايتهم. وقد رأينا سابقاً أنّ العـرب كـانوا يصحبون نساءهم في حروبهم؛ حرصًا عليهنّ من مباغتة الأعداء.

ويمكننا القول: إنّ الهودج أو الظَّعينة هما نتاج طبيعيّ لصراع العربيّ مـع الطّبيعة من ناحية، ومع أخيه الإنسان من ناحية أخرى.

فصراعه مع الطّبيعة يظهر فـي العلاقـة الوثيقـة بـين البيئـة البدويّـة الصّحراويّة، والرّحلة الدّائمة الاضطراريّة؛ بحثاً عن الماء، ومواطن الرّعـي، والكلأ؛ حيث يكون الجدْب ونُدْرة الماء السّبب المباشـر فـي الظَّعـن، وتـرك الدّيار-على حبِّها- إلى أمكنة أخرى خِصبة، وصالحة للحياة.

وصراعه مع أخيه الإنسان؛ يظهر فـي مسلـسل الوقـائع، والنّزاعـات، والخصومات بين القبائل؛ الّتي تضطرّ الضّعيفَ إلى إخلاء المكان لمن هو أقوى منه.

ولمّا كانت المرأة بحكم تكوينها الخَلْقيّ، تمثِّل الجانـب الأضـعف؛ كانـت تستدعي توفير الأمن لها، وحمايتها من أيّ مكروه؛ فكان الهَودج هو ما يناسبها، ووجد العربيّ في الجمل خير معين على مواجهة صراعه مع قسوة الحياة؛ لمـا

عُرف عنه من تحمّل الجوع، والعطش، والسّفر الطّويل، فاعتمد عليه في حلّــه وترحاله، ونقل أمتعته، ووصفه بسفينة الصّحراء.

وهو ما يفسّر لنا إطلاق لفظ الظّعينة على المرأة في الهوْدج، ثمّ للهــودج بلا امرأة، وللمرأة بلا هوْدج، وعلى الجمل الّذي يُركب..

بناء الهَوْدج وصناعته:

يُصنع الهودج من عدد من الأخشاب الرّقيقة سهلة التّشكيل؛ تقــوّس علــى شكل يشبه القبّة، تعلو منبسطاً من أخشاب أقوى منها؛ كظهــر ســرير يتّــصف بالمتانة،أو هو بالأحرى مقعد متنقّل يوضع على الجمل تركب داخله المرأة.

ولا يخفى أنّ حمله كان يتمّ برفق وبطء ودون إسراع، وذلك رفقاً بما فيه مــن النّساء.

ويُكسى الهودج كلّه – أعلاه وجوانبه– بنسيج من صوف أو غيره، ويُزيّن بالألوان والزّخارف، ويبطَّن فلا يبرز من أخشابه سوى بعض أطرافه؛ كمقابض من الخارج لحمله أو إنزاله، والهودج في مجمله شبيه بمظلة تقي من بــداخلها كلَّ العوامل الخارجيّة الطّبيعيّة والبشريّة؛ فالطّبيعيّة مثل البرد والرّيح، والبشريّة رؤية النّاس لمن بداخلها أو انكــشاف مــن بداخلــه مــن حركــة أو هــواء. ويبدو أنّ الهودج قد عُمل أساساً لتحقيق السّتر للمرأة أثناء ركوبها على البعيــر، فقُرِن منذ عُرف بالمرأة؛ فهو خاصّ بها، ويسمّى باسمها إذا ركبت فيــه فهــو ظعينة، وهي ظعينة، وقد قال زهير في معلّقته:

تبصر خليليّ هل ترى من ظعائن * تحملن بالعلياء مـــــن فوق جرثُمِ

بكرن بكوراً واسْتحــرن بسحرة * فهنّ ووادي الرّسّ كاليد في الفمِ

وقال عمرو بنكلثوم:

ويبدو أنّ صناعته، وتجهيز زخارفه كلّها من عمل نساء البادية.

زينة الهودج:

لقد اهتمّ العربيّ بزينة الإبل اهتماماً كبيراً، ولا سيّما فيما يوضع عليها ويربط بها، فأضاف إلى حسنها في خَلْقها أموراً تتّصل بتسهيل ركوبها والجلوس على ظهورها، أو ما يشدّ به على ظهرها من رحل من جهة الذّيل، أو من جهة البطن، ولم ينس ما تقاد به الإبل أو ما تربط به؛ حينما تكون مستقرّة في مواضع مَبَارِكِها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجمال بأسلوب بليغ، وإيجاز معجز؛ ولا ينبّئك مثل خبير؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾[٢٣]، وحين أراد لفت أنظار خلقه إلى خِلقتها؛ فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ ﴾[٢٤].

فأمّا أهمّ أدوات الزّينة؛ فهي: الرّحل، والوضين، والخطام، والغبيط، والرّجازة، والنّحيزة:

١- **الرّحل:** هو السّرج الّذي يوضع على النّاقة من أجل أن يجلس عليه الرّاكب؛ حيث قال "ابن سيده": رحلت الرّحل رحلة: وضعته على البعير تماماً، وكذلك رحلت البعير، أرحله رحلاً، وارتحلته: وضعت عليه الرّحل.

وجاء في الشّعر القديم ذكر الرّحل ووضعه على البعير؛ قال المُثَقِّبُ - يتحدّث عن ناقته-:

إذا ما قمت أرحلها بليل * تأوَّهُ آهةَ الرّجلِ الحزينِ[٢٥]

٢- **الوَضين:**

الوضين: هو الحبل أو الرّباط، ويُصنع غالباً مـن الـصّوف أو الـشّعر، وينسج نسجاً مع مراعاة تداخل الألوان لإعطاء منظر جميل، ونجد في الـشّعر ذكراً لهذا الوضين؛ حيث يقول المثقّب العبديّ أيضاً:

إذا قلقت أشد لهـــا سنافاً * أمام الزّور مـــن قلق الوضين(٢٦)

والوضين بحدّ ذاته؛ وظيفته تثبيت الرّحل على النّاقة، وإن كان لهذا الحبـل أسماء متعدّدة.

ذكر أبو عبيد منها: "الغُرْضة والغرْض –ابْـن دُرَيْـد جمعـه غُـرُوض وأغراض–، وَهُوَ الوَضِين، والسَّفِيف، والبِطَان الحَقَّـب، واللَّبَـب، والـسِّنَاف، والشِّكَال"(٢٧).

٣– الخِطام: هو المقود الّذي يُقاد به البعير، وتعريفه: ما وضع فـي أنـف البعير ليقاد به. وجرت العادة؛ أن يقوم المربّي بثقب أنف النّاقة، ويجعـل فيـه حلقة تسمّى البدة؛ حيث يُشَدُّ فيها زمام النّاقة؛ فالخِطام هو الزّمام؛ يربط في هذه الحلقة الّتي في أنف البعير ليقاد منها.

٤– الغبيط: الغبيط هو الهودج الّذي يُجعل على ظهر البعير فوق الرّحـل، وتجلس فيه المرأة وهي في ستر؛ مع ملاحظة أنّ الهودجَ مقبّبٌ.

وقد ورد اسم الغبيط في شعر امرئ القيس؛ إذ يقول:

ويوم دخلت الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَة * فقالت: لك الويلات إنّـــــك مرجلي
تقول وقـد مال الغبيط بنا معاً * عَقَرْتَ بعيري يا امرأَ القيسِ فانزلِ(٢٨)

٥– الرِّجَازة: وتعني الرِّجازة: كسَاء فِيهِ حجر؛ يعلّق بِأحد جَانِبي الهـودج؛ ليعدله إِذا مَال.

قال أحدهم:

عدل الْحصين لَدَى الْحصين كَمَا * عــدل الرِّجَازَة جَانب الْميل(٢٩)

٦- **النَّحِيــزة:** النَّسِيجَة شِبْهُ الحِزام؛ تَكُونُ عَلَى الفَساطيط، وَالْبُيُوتِ تُنْــسَجُ وَحْدَهَا(٣٠).

قَالَ ذُو الرُّمَّةِ يَصِفُ نَاقَتَهُ:

كأَنها جَمَلٌ وَهْمٌ، وَمَا بَقِيتْ * إِلَّا النَّحيزةُ، والأَلْواحُ، والعَصَبُ(٣١)

الظّعينة في الشّعر الجاهليّ:

يُعَدّ الشّعر العربيّ الجاهليّ انعكاساً للبيئة الصّحراويّة الّتي نشأ فيها، وللواقع الاجتماعيّ في ذلك العصر؛ وبالتّالي فإنّ في وسعنا أن نتبــيّن موقــعَ المــرأةِ (الظّعينة)، ومكانتَها في العصر الجاهليّ؛ من خلال مضامين مــا وصَــلَنَا مــن أشعار الجاهليّين؛ مع ملاحظة أنّ هذا الشّعر – في أغلبه- يعبِّــر عــن موقــع المرأة من منظور الرّجل.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الشّاعر الجاهليّ قــد عــايش ظــاهرة تعاقــب الجــدْب والخصْب في الصّحراء العربيّة، وعانى من آثارها ما عاناه الآخرون؛ إلا أنّــه الأكثر تفاعلاً، والأقدر على تصوير تلك المعاناة.

لقد أدرك بالمشاهدة أنّ غياب الخصب، وانعدام المطر أحياناً؛ يــؤدّي إلــى فَــقْد المحبوبة (المرأة) وفراقها، ويضطرّها إلى هجر المكان الّذي ألفته، والبدء في رحلة جديدة مع الأهل والقبيلة؛ بحثاً عن مــصدر للمــاء؛ يــؤمّن الحيــاة والاستقرار.

ولعلّه من الطّبيعيّ أن تكون قد نشأت بين بعض المتجاورين، من الشّباب والصّبايا؛ ألفة، أو صداقة، أو علاقة حبّ؛ مهدّدة بالانقطاع فجأة؛ برحيل أحــد الطّرفين؛ رغم أنفه.

ومن الطّبيعيّ أيضاً أن نجد الرّجل (الشّاعر)؛ هو من يصرّح بمعاناتـه إثْر هذا الانقطاع، ويصوّره في أشعاره؛ على حين أنّ دوْر المرأة يظلّ محايـداً؛ ذلك أنّ إفصاح المرأة عن مشاعرها؛ هو ممّا لا يليق بها، وممّا لا يُسمح به في ذلك المجتمع.

وهكذا نجد الشّاعر الجاهليّ؛ يربط بين رحيل الحبيبة (المـرأة)؛ بعـد أن أصاب الجفاف، والدّمار، والخرابُ ديارَها، وانعدام المطر؛ ممّا يعني أنّ المرأة –لديه– قد تحوّلت إلى رمز يمثّل الخِـصْبَ والحيـاة، ورحيلهـا هـو رحيـل الخِصب، وحلول الجَفاف، والجَدْب، والخِواء.

ولا تخفى دلالة هذا الرّبط على مكانة المرأة، وما كانت تحظـى بـه مـن التّقدير والإجلال؛ وليس أدلّ على ذلك من أنّ ذكر المرأة صار يتصدّر مطلـع القصيدة الجاهليّة.

وهنا نصل إلى المشهد الأوّل؛ المشهد الّذي يتركه رحيل المرأة الحبيبة في نفس الشّاعر؛ وهو الوقوف على طَلَلِها، ومناجاة ديارها، ومواجهـة الوَحـشة، والخَراب، والفراق؛ بالبكاء، وذرف الدّموع.

وقد يبدو لنا مشهد البكاء هذا –اليوم– غريباً، فنعجب من رجل لا يجد مـا يواجه به الشّدّة؛ غير اللّجوء إلى الدّموع والبكاء؛ إلا أنّ شيوع هذا المشهد لدى الجميع؛ قد يعني أنّه كان مقبولاً؛ وممّا لا غرابة فيه؛ بل إنّنا نجـد أنّ بعـضهم يربط بين الدّموع والمطر، ولعلّ ظروف الحياة وقسوتها لم تكن تـسمح بخيـار آخر، وقد يكون هذا المشهد البكائيّ غير حقيقيّ لدى بعضهم؛ وإنّما هو تعبيـر رمزيّ عن حالة الحزن.

فأمّا المشهد الثّاني فغالباً ما يكون وصف الظّعـائن؛ ابتـداءً مـن لحظـة الاستعداد للرّحيل؛ فمتابعة موكب المحبوبة، متابعة تفـصيليّة؛ حيـث يـصف الشّاعر الهودج وصفاً دقيقاً، فيذكر ألوان ستائره، والأقمشة الّتي صنع منها.

وأوّل ما يطالعنا من الشّعر الجاهليّ، في الوقوف على طَلَلِ الحبيبة، والبكـاء على فراقها، ووصف ظعنها؛ ما نراه في مقدّمة معلّقة امرئ القيس؛ حيـث يقول:

قِفَا نَبْكِ مِـنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُـولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا * لِمَا نَسَجَتْهَا مِـنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

تَـرَى بَعَرَ الآرْآمِ فِي عَرَصَاتِهَا * وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَـبُّ فُلْفُلِ

وُقُوفاً بِهَـا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ * يَقُولونَ: لا تَهلكْ أَسًـى وَتَجَمّـلِ

وإِنَّ شِفَائِـي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ * فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِـنْ مُعَـوَّلِ

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوَيْرِثِ قَبْلَهَـا * وَجَارَتِهَا أُمِّ الرِّبَـابِ بِمَأْسَلِ(٣٢)

ولذلك قيل إنّ امرأ القيس هو أوّل من وقف، واستوقف، وبكـى، وأبكـى، وذكر الحبيب والمنزل.

فالدّيار قد خلت من الأحبّة، وعُنيزة قد رحلـت، كمـا رحلـت قبلهـا أمُّ الحُويرث، وأمُّ الرّباب.

والمكان قد أقفر وصار مُجْدباً؛ بعد أن كان خِصبًا يَعجّ بالحركة والحيـاة؛ عامراً بالنّاس؛ ولكنّه الآن صار مَسْرحاً للظّباء والحيوانات.

إنّها صورة لواقع الحياة في الصّحراء، وللبيئة الّتي قد تقسو على سـاكنها، فتجبره أن يهجر منزله، ويبحث عن غيره.

ولا أظنّ أنّ الشّاعر هنا يريد من ذكر أسماء النّساء التّباهي بمغامراته العاطفيّة؛ وإنّما أراد به الإشارة إلى قسوة الصّحراء، وحالة الجدْب الّتي تعاودُها، وقد تتكّرر بصورة تضيق معها سبل الحياة، ولا مخرج من ذلك الضّيق إلا بالبحث عن الخصْب في مكان آخر. ولعلّ المرأة هنا هي الرّمز الّذي يؤدّي الشّاعر من خلاله نقل هذه الصّورة؛ فالمرأة هي الحياة، ورمز التّجدّد، والخصوبة، فكلّما رحل الخصْب، رحلت المرأة.

وقد عُرف امرُؤ القيس بالخلاعة والمجون؛ حتّى إنّ أباه قد طرده بسبب ذلك، وهو لا يتورّع أن يتسلّل إلى خِدر (هودج) عنيزة، ابنة عمّه، ويقُصَّ ما كان منه؛ حيث شبّهها بالشّجرة المثمرة، وذكرَ أنّ (الغبيط) قد مال بهما، وأنّها دعت عليه، وقالت له: إنّك تصيّرني راجلةً؛ لعقرك ظهر بعيري، فيقول:

ويــــومَ دخلْتُ الخِدْرِ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ * فقالت: لك الويلات إنّك مُرجِلي

تقول وقد مـــال الغبيط بنا معاً * عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها: سيري وأرخي زمامه * ولا تبعديني عن جنـاك المُعلَّلِ(٣٣)

ومع ما يبدو في ظاهر هذه الأبيات من وصف حسّيّ، ونزعة ذاتيّة، فقد شبّه الشّاعرُ عُنيزةَ الحبيبةَ بالشجرة المثمرة الّتي يقتلها الجفاف، وتضطرّ للرّحيل؛ لتستمرّ الحياة.

وهذا شاعر آخر هو زهير بن أبي سُلمى يفتتح معلقته -الّتي مدح فيها هرم بن سنان والحارث بن عوف- بذكر الأطلال، وما بقي من آثار ديار المحبوبة (أمّ أوْفى)؛ الّتي تشبه الوشْم في المعصم، وقد سكنتها بقر الوحش، الواسعات العيون، والظّباء البيضاوات، اللّواتي يَخْلُفن بعضهنّ بعضاً. وقال إنّه وقف بها بعد عشرين سنة من فراقها، فعرفها بعد معاناة ومشقّة؛ لبُعد العهد بها، ودُرُوس

أعلامها، وأنّه عرفها من حجارتها الّتي كانت توضع عليها القِدْر، ومـــن نُهيْـــر صغير كان حول البيت تتجمّع فيه مياه المطر؛ إذ يقول:

أَمِنْ أمّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تكلّمِ * بحوْمانـــــــــة الدرّاج فالمُتَثَــلَّمِ

ودارٌ لها بالرّقمتين؛ كأنهــــــا * مراجيعُ وَشْـــمٍ في نَواشر مِعْصَمِ

بها العِينُ والآرام يمشين خِلْسَةً * وأطلاؤُها ينْهَضْــنَ من كلِّ مجْثَمِ

وقفْتُ بها من بعْد عشرين حَجَّةً * فلأْيًا عرفـــــــــتُ الدّار بعْد تَوُهُّمِ

أَثافـــيَّ سُفْعــاً في مُعــرَّسِ مِرْجَلٍ * ونُؤيـــًا كجذْمِ الحَوضِ لم يتثَلَّمِ(٣٤)

وينتقل زهير؛ بعد هذه المقدّمة الطّلليّة الحزينة، فيصوّر رحلة الظّعـــائن؛ إذ يقول:

تبصَّر خليليّ هل ترى مِنْ ظَعائنٍ * تَحَمَّلْنَ بالعلياء من فوق جُــرثُمِ

جَعَلْنَ القنان عـــن يَمينٍ وحَزْنَهُ * وكم بالــقــنان مِنْ مُــحِلٍّ ومُحْرِمِ

عَلَوْنَ بأنمـــــاطٍ عتاقٍ وكِلّــةٍ * وِرَادٍ حواشيهــــا مشاكهــة الدَّمِ

وَوَرّكْن في السّوبان يعلــون متنه * عَلَــيْهنّ دَلُّ النّاعم المُــتَـــنَعِّمِ

بَكَرْنَ بُكُوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ * فهُــنَّ ووادي الرّسِّ كــاليــَد للفَمِ

وفيهنّ ملهى للّطّيــْف ومنظرٌ * أنيــقٌ لِعَيْــنِ النّاظــر المُتَــوَسِّمِ

كأنّ فتاتَ العِهْن في كلّ مَنزلٍ * نَزلْنَ بـــه حَـــبُّ الفنا لم يُحطَّمِ

فلمّا وردنَ الماءَ زُرْقاً جمامُه * وضَـــعْن عِصيَّ الحاضِرِ المتخيِّمِ

ظَهَرْنَ من السّوبـــان ثُمّ جَزعْنَه * علـــى كلّ قَينِيّ قَشيب ومُفْأَمِ(٣٥)

يطلب زهير من رفيقه أن ينظر؛ لعلّه يرى في موقع الماء –واسمه جرثم– نساءً في هوادج على الإبل.

يريد أنّ الوجد والصّبابة قد ألحّتا عليه حتّى ظنّ المحـــالَ ممكنـــاً؛ فكيـــف يراهنّ بعد عشرين عامًا؟! ويقول إنّهن قد غطّين الهوادج بأستار رقيقـــة حمـــر الحواشي؛ بلون الدّم، وقد مرَرْن بالسّوبان (الأرض المرتفعة)، وعلـــيهنّ تبـــدو آثار النّعمة والدّلال، وقد سرْن في السَّحَر قاصدات وادي الرّسّ الّـــذي يعرفنـــه جيّداً، كما تعرف اليد طريقها إلى الفم. ثمّ وصفهنّ بالجمال؛ ففيهنّ لهو للنّـــاظر الّذي يتتبّع محاسنهنّ، وسمات جمالهنّ. وذكر ما يتساقط من هوادجهنّ من قطع الصّوف المصبوغ بعنب الثّعلب، ثمّ وصف ورودهنّ المـــاء الـــشّديد الـــصّفاء وعزمهنّ على الإقامة.

نلاحظ أنّ زهيراً في هذه الأبيات؛ يصوّر لنا مشهداً للظّعائن قد رآه حقيقة، أو تخيّله منذ عشرين سنة، وليس وليد اللّحظة، وهذا يعنـــي أنّ لـــدى الـــشّاعر الجاهليّ صورةً للظَّعْن مختزنةً في داخله، وأنّ هذه الصّورة ليست خاصّة بـــه؛ وإنّما هي عامّة، يشترك فيها جميعهم؛ ولكن لكلّ شاعرٍ طريقتـــه فـــي نقلهـــا، ووصفها، وتصويرها.

أو أنّ زهيراً قد رأى ظعائن تتهادى أمامه؛ فهيّجت عليه ذكرياته القديمـــة لواعجه، واسترجعها كأنّها هي؛ كما فعل متمّم بن نويرة حين بكى أخاه مالكـــاً؛ فكلّما رأى قبراً بكاه، وإن لم يكن قبر مالك؛ فعذَلَهُ صاحبُه؛ فقال واصفاً:

وقال: أتبكي كلّ قبـــــــر رأيته * لقبر ثوى بيـــــن اللّوى فالـــدّكادك

فقلت له: إن الشّجا يبـــعث الشجا * فدعني فهذا كلّه قبـــــر مـــالك[٣٦]

ومعنـــاه: فكأنّما قد ملأ الأرض مصابُه عِظَمَاً، وكأنّ مالكاً مدفون في كـــلّ قبر. وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميّت!

وهذه الظّعائن كذلك كلّها ظعائن زهير! فيا لله ما أبدع هذا الوصف، ومـــا أصدق هذه المشاعر وأروعها!

ونرى أنّ بين صورة الظّعينة عند امرئ القيس، وصورتها هنا؛ قدراً مـــن التّشابه؛ فقد ذكر كلٌّ منهما عدداً من الأماكن.

ولعلّ في خاتمة هذا الوصف –عند زهير– للظّعينة؛ الّذي توقّف عند ورود الماء؛ ما يوحي بأنّ الظّعينة لدى الشّاعر الجاهليّ؛ هي أكبر من مجرّد وصـــف نسْوة في هوادجهنّ؛ إنّها وصفٌ لواقع الحياة الّتي يراها الشّاعر تحـــدث أمـــام عينيه، والصّراع الدّائم مع سنيّ الجدب، وشحّ الماء؛ الّذي يعني الموت والحياة.

وهذا عمرو بن كلثوم يفتتح معلّقته بذكر الخمر؛ بعيدًا عن الأطلال، ومشهد البكاء، فهي مقدّمة خمريّة؛ ولعلّ ذلك ممّا يتناسب مع نـــشوة الانتـــصار الّتـــي غَمرت قبيلة تغلب وخامرتها؛ بعد أن قتل عمرُو بن كلثوم، عمـــرَو بـــن هنـــد، فيطلب من السّاقية أن تسقيَه من خمور الأندرين (قرى الـــشّام)، وأن لا تـــدّخر منها شيئاً، فيقول:

ألا هبّي بصـــــحنك فاصبحينا * ولا تُبقي خمـــــــورَ الأندرينا(٣٧)

ويستبدل ذكر الأطلال؛ بذكر الأماكن الّتي شرب فيها الخمر، فُيسمّي منها: بعلبكّ، ودمشق، وقاصرين، في إيحاء إلى القوّة:

وكأسٍ قد شـــــربتُ بِبَعْلبكٍّ * وأُخرى فـــــي دمشْقَ وقاصِرينا

ويخاطب بعد ذلك أمَّ عمرو زوجَه، الّتي صـــرفت الكـــأس عنـــه؛ ممهّـــداً بحرمانه من الخمر؛ للحرمان من المحبوبة، وفراقها له، فيقول:

صَبَنْتِ الكأسَ عنّـــــا أمَّ عمروٍ * وكـــــانَ الكأسُ مجراها اليمينا(٣٨)

ويذكر بأنّ الموت مقدّرٌ، لا مفرّ منه:

وإنّا سوف تدركنا المنايا * مُقدَّرةً لنا ومُقَـدَّرينا

وفي البيت التّاسع من المعلّقة؛ يستوقف الظّعينة؛ ليخبرها بما لاقاه؛ معلّـلاً الفراق والارتحال؛ بعامل البيئة البدويّة، فيقول:

قفي قبـــــل التفرُّق يا ظعينا * نُخبِّـرك الـيـقـــين وتُخْبرينـا

قفي نسْألك هـــلْ أحْدثتِ صَرْما * لوشـك البيْن أم خُنتِ الأمينـا(٣٩)

ويبدو أنّ صورة الحرب الّتي تسيطر على الشّاعر؛ قد جعلته يكتفي بهـذين البيتين؛ لينتقل بعدهما إلى ساحة القتال، فيقول:

بيَوْمٍ كريهـــــةٍ ضرْبًا وطعنـاً * أقَرَّ به مواليك العيونـــــا

وإنّ غداً وإنّ اليـــــوم رهْنٌ * وبعـدَ غـــدٍ بما لا تعلمينا(٤٠)

يعود بعد ذلك إلى وصف محبوبته، فيقول:

تُريكَ إذا دخلتَ علـــى خلاءٍ * وقد أَمِنَتْ عُيـــون الكاشحينا

ذِراعي عَيْطلٍ أدْمـــــاء بِكْـرٍ * هِجانِ اللّونِ لـــم تقرأْ جنينا

وثدْيـــاً مِثْلَ حُقِّ العـاج رَخْصاً * حَصـاناً مِنْ أَكُفّ اللّامسينـا(٤١)

إنّها امرأة جميلة تكشف عن جمالها (تُريكَ) فيراها أبناء القبيلة كلّهـم دون أعدائهم؛ وقد جمعت إلى حُسنها وجمالها؛ العفّة؛ فهي مصونة، حَصان من أكفّ اللّامسين؛ هذه المرأة هي في الواقع؛ القبيلة الّتي ينتمي إليها الشّاعر.

وينتقل الشّاعر بعد إلى الفخر بأمجاد قبيلته تغلب؛ معدّداً مناقبها، ويخـصّ الظّعائن (نساء القبيلة) بنصيب من هذا الفخر؛ فهنّ البـيض الحـسان، اللّـواتي أخذن على أزواجهنّ عهداً أنْ لا يفرّوا من ساحة القتال؛ وهنّ يمشين الهُـويْنى،

ويتبخترن كالسّكارى، ويعلفْن الجياد، ويقلن للرّجال: لستم أزواجنا إن لم تمنعــوا الأعداء عن سَبْيِنَا! وقد جمعْنَ إلى جَمالهنّ مكارم الحَسَب والنَّسَب.

ويقرّر أخيراً أنّ ما يحول بين الظَّعائن والسّبي؛ هو الضَّرب القويّ الّــذي تطير منه سواعد المضروبين، فيقول:

علـــــــــى آثارنا بِيضٌ حسانٌ * نُحـــاذرُ أنْ تُقَسَّم أو تهونـــــــــا

أخذْنَ علـــــــى بعولتهنّ عهداً * إذا لاقوا كتائبَ مُعْلمينـــــــــــا

إذا ما رُحْنَ يمشين الهُوَيْنـــــى * كما اضطَرَبَتْ مُتون الشّاربينـــا

يقتْنَ جِيادنـــا ويَقُلْـــــــنَ لستُمْ * بُعولتنا إذا لم تمنعونـــــــــــا

ونجد عند عنترة أنّ المكان يمتزج بالحبّ فـــي المقدّمـــة الطّلليّـــة، فنـــراه يخاطب الأطلال مضافة إلى اسم الحبيبة "عبلة"، فيحيّيها، ويدعو لها بالسّلم، في إيحاء إلى أحد أسباب الظَّعن (الحروب)؛ إذ يقول:

هل غادر الشّعراء مـــن متردِّمِ * أمْ هـــــــل عرفتَ الدّارَ بعد توهُّمِ

يا دار عبلـــــة بالجواء تكلّمي * وعِمي صباحاً دار عبلة واسلمي(٤٢)

وينتقل سريعاً، فيتحدّث عن ارتحال عبلة، ونزولها بالجِواء؛ بينما أهله فـــي مواضع أخرى، هي: الحزن، والصّمّان، والمتثلّم. إشارة واضحة إلى المـــشكلة الكبرى العامّة الّتي تفرضها البيئة الصّحراويّة على ساكنيها، فتـــضطرّهم إلـــى التّنقّل من مكان إلى آخر؛ فهي السّبب في التّفريق بين الأحبّة، كما أنّ المكان قد يلعب دوْراً آخر في تفريق المُحبّين؛ إذا نزلت الحبيبة في أرض الأعداء؛ حيـــث تُصبح زيارة الحبيبة عسيرةً، وربّما معدومة، فيقول:

حلّت بأرض الزائرين فأصبحـــتْ * عسِراً عليَّ طِلابُكِ ابنـــــة مَخْرَمِ

كيف المزارُ وقد تربّع أهلُهـــــا * بعُنَيْزَتين وأهلُا بالغَيْلَـــــــــمِ(٤٣)

ومن المقدّمة الطلليّة القصيرة؛ ينتقل إلى وصف رحلة الظّعــائن، فيرســم صورة سوداء، مثيرة للشّؤم، فيذكر أنّ الظّعائن قد ارتحلت فــي ظلمــة اللّيــل البهيم؛ حيث اللّون الأسود يملأ المكان، كما يذكر عدد الإبل في هــذه الرّحلــة؛ فهي اثنتان وأربعون ناقةً سوداء؛ تشبه في ســوادها الغــراب، ذلــك الطّــائر المشؤوم عندهم، فيقول:

إنْ كنت أزْمَعت الفراق فإنَّــــم * زُمَّتْ رِكابُكُمُ بِليْلٍ مُظْلــــــــمِ

فيها اثنتان وأربعون حلوبـــــةً * سوداً كخافيـــةِ الغُرابِ الأسْحَمِ[٤٤]

ويكشف الشّاعر عن السّبب الحقيقيّ لرحلة الظّعينة؛ وهي أنّ الإبل لا تجــد ما تقتات به سوى حبّ الخِمــخِم؛ ممّا ينذر بانعدام الكلأ، وانتهاء مدّة الانتجاع. وهذا هو السّبب الأوّل لرحلة الظّعينة لدى العربيّ في الــصّحراء؛ إنّــه قــسوة الطّبيعة الصّحراويّة، المهدّدة بالجدْب، وقلّة الأمطار أو انعدامها أحياناً؛ فالجفاف الّذي لا يترك للحيوانات ما تقتات به، أو ما تشربه؛ لا يترك للنّاس خياراً غيــر الارتحال، والبحث عن مكانٍ آخر. إنّها الصّورة العامّة للبــدويّ الّــذي يقــف عاجزاً أمام جبروت البيئة (المكان)؛ فما إن يعتاد عليه، ويألفه، ويكــاد يطمــئنّ إليه؛ حتّى يجد نفسه مُجبراً على هجْره؛ تاركاً فيه أحبّةً وذكرياتٍ جميلةً. يقول:

ما راعنـــــي إلاّ حمولةُ أهلهــــا * وسْطَ الدّيار تســفُّ حَبّ الخِمْخِمِ[٤٥]

ويصف بعد ذلك ثغر محبوبته، وريقها العذب، تسبِقُهُ رائحتها الّتــي تــشبه المسك، والرّوضة الّتي سقاها المطر، فيقول:

إذْ تستبيك بذي غُروبٍ واضـــحٍ * عــذْبٍ مُـــقَـبَّــلُهُ لذيذ المَطْعَمِ

وكأنّ فارة تــــــــاجرٍ بقسيمةٍ * سبقَتْ عوارضها إليك مــن الفمِ[٤٦]

ونجد شاعراً آخر؛ هو لبيد بن ربيعة؛ يفتتح معلّقته بذكر أطلال الدّيار الّتي ارتحل عنها الأحباب، وتوحّشت، وسمّى منهـا: مِنـىً، والغَـوْل، والرّجـام، والرّيّان؛ إذ يقول:

عَفَتْ الدّيار مَحَلُّهـــا فمُقامها * بِـمِـنىً تأبّد غَـوْلُهـــا، فَرِجامُها

فمدافع الريّان عُرّيَ رسْمُهـــا * خَلَقاً كما ضمِنَ الْوحِيُّ سِلامُهـا(٤٧)

ويصف آثار الدّيار بمضيّ سنين على عهد سكّانها بهـا، وأنّهـا رُزِقَـتْ الأمطار، وترادَفَت عليها الأمطار المختلفة من الأنواع كلّها، فأمرَعَتْ وأعْشَبَتْ، فيقول:

رُزِقَتْ مرابيع النّجـــوم وصابها * وَدْقُ الرَّواعـدِ جَوْدُها فـــرِهامُها

من كلّ ساريةٍ وَغـــادٍ مُدْجِنٍ * وعشِيَّةٍ مُتَجاـــوبٍ إرزامُها(٤٨)

وقد عادت إليها الحياة والحركة؛ فقد اخضرّت، وطال نباتها، وأطفلت فيهـا الظّباء، وباضت النّعام على جانبي وادي هذه الدّيار، وسـكنتها قطعـان البقـر الواسعات العيون؛ الّتي ترضع أولادها، فيقول:

فَعَلا فـــروعُ الأيْهقان وأطفَلَتْ * بالجَهْلتيـــن ظباؤُهـــا ونَعامُها

والعينُ ساكنةٌ علـــى أطلائها * عُوذاً تأجَّلُ بالفضـــاء بهامُها(٤٩)

ثمّ يقول: لقد كشفت السّيول عن الأطلال الدّيار فأظهرتها؛ فكأنّهـا كتـب تجدّدُ الأقلام كتابتها، وكأنّها الوشم الّذي يأبى الزّوال، فيقول:

وجَلا السُّيولُ عن الطّلول كأنّهـا * زُبُرٌ تُحِـــــدُّ مُتونَها أقلامُها

أو رجْعُ واشمةٍ أســـفّ نَؤورُها * كِفَفـاً تعرَّضَ فـوقهُنّ وِشامُها(٥٠)

فالصّورة الّتي ينقلها لنا الشّاعر، هي حالة التّقلّب في البادية مـن الجـدب والجفاف، إلى الخصْب والاخضرار؛ وهي الصّورة العامّة الّتــي تميّــز البيئــة الصّحراويّة، وتلقي بظلالها على حياتهم، وتضطرّهم إلى الارتحال مـن مكــان إلى آخر.

وبعد هذا التّمهيد؛ يتوقّف الشّاعر ليسأل الدّيار عن سكّانها؛ في إشارة إلــى شدّة الولَه والشّغف؛ فهو يدرك أنّ الحجارة غير قادرة على الرّدّ عليه، فيقول:

فوقفتُ أسألــُها، وكيف سؤالنــا * صُــمّاً خوالد مـــــا يبين كلامُها

فإلى وصْف رحلة الظّعائن الّتي أثارت شوقه، فوصــفَ دخــول النّــساء هوادجهنّ المغطّاة بثياب القطن الفاخرة، وقد أُسدلت عليها الـسّتائر، وشـبّههُنّ بنعاج تُوضِح، وبظباء وَجْرة، في سعة العيون وحسنها، فيقول:

شاقتْكَ ظُعْنُ الحيِّ حيــن تحمّلوا * فتَكَنَّســوا قُطُـناً تَصِــــرُّ خيامُها

زُجَلاً كأنّ نعاجَ توضـــحَ فوقَها * وظِباءَ وَجْرةَ عُطّفًــــا أرآمُها(٥١)

فإلى نَوار الحبيبة (الظّعينة)؛ الّتي تقطّعت أسباب وصالها، فيذكر أنّ سـبب القطيعة هو ارتحالها؛ فهي من قبيلة مُرّة وقد حلّت ببلدة (فَيْد) وجـاورت أهـل الحجاز؛ يريد أنّها متردّدة بين هذين الموضعين، وبينهما وبـين بـلاده مـسافة بعيدة؛ يتعذّر معها طلبُها والوصول إليها، فيقول:

بلْ ما تذَكَّرُ من نَــوارَ وقد نأَتْ * وتقطَّعتْ أسبابُهـــــــا ورمامُها

مُرِّيَّةٌ حلَّتْ بفَيْـــــدَ وجاورتْ * أرض الحجاز فأين منك مَرامُها(٥٢)

وهكذا يلعب المكان دوره في التّفريق بين الأحبّة، ويجعل التّواصل بينهمـا عسيراً، وربما غير ممكن. وتكاد أن تكون هذه الصّورة واحـدة عنـد جميـع الشّعراء، فالحبيبة (الظّعينة) مرتحلة دائماً، ووصالها بعيـد المنـال، والمكــان

يفرض نفسه بقوّة على ساكن البادية، فيرسم له خريطة تنقّله، ويحتفظ له بسجّل ذكرياته.

فأمّا الحارث بن حلّزة؛ فيبدأ معلقته بالحديث عن رحيل صاحبته أسماء وفراقها، ويسمّي من الأماكن: بُرْقة، والخلصاء، فالمحياة، فأعناق فتاقٍ، فعاذب، فالوفاء، فرياض القطا، فأودية الشُّربُب، فالشّعبتان، فالأبلاء، فيقول:

آذنتنا بِبَيْنِها أسمـــــــــاءُ * رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منـــــــــه الثّواءُ

بعْدَ عهدٍ لنا ببُرقـــــــةِ شمّا * ءَ، فأَدْنى ديارهـــــا الخَلْصاءُ

فالمحيّاة، فالصّفاح، فأعنـــا * قُ فتـــــــاقٍ، فعاذبٌ، فالوفاءُ

فرياضُ القطا، فأودية الشُّرْ * بُبِ، فالشُّعبتـــــان، فالأبلاءُ[٥٣]

حيث نرى كثرة الأماكن التي رحلت عنها أسماء ، يبدو معها أنّ الجدْب قد طال كلّ هذه الأماكن، واضطرّ أهلها إلى الرّحيل عنها. ويمكننا أن نستنتج هنـــا أنّ الشّاعر لا يتحدّث عن ديار الحبيبة؛ وإنّما ينقل صورة تكاد تكون عامّة فـــي البيئة الصّحراويّة.

وينتهي هذا المشهد بالإعلان أنّه لا يرى في هذه الدّيار أحداً مـــن البـــشر، فيغلبه البكاء؛ مع علمه أنّه لا طائل من ورائه، فيقول:

لا أرى مَنْ عهِدْتُ فيها فأبكي الـــ ـــــيومَ دلهاً وما يُحير البكاءُ[٥٤]

ويعود الشّاعر فيذكر صاحبةً له ثانية اسمها هنْد،قد أوقدت النّار بخزازى؛ بـــين العقيق،وشخضين؛ ولقد رآها؛ إلا أنّه لا يمكنه الاصطلاء بها؛ بسبب الحـــروب، فيقول:

وبعيْنيْكَ أَوْقَدَتْ هـــــــــندٌ النّا * رَ أخيراً تُلـــــــــوْي بها العلياءُ

فَتَنَـــــوَّرْتُ نـــارَها من بـــعـــيدٍ * بِخزازى؛ هيْهـــات منك الصِّلاءُ

أَوْقَدَتها بين العقيــق، فَشَخْضَيْــ * ــنِ بعودٍ؛ كمــا يلوحُ الضّياءُ

ويسمّي الشّاعر هنا ثلاثة أماكن جديدة؛ منها المعــروف بخــزازى؛ وهــو المكان الّذي انتصرت فيه قبيلته بكر؛ ما نظنّ معه أنّ "هنْــد" المحبوبــة؛ هــي مجرّد رمز؛ استخدمه الشّاعر للدّخول إلى غرضه الأساسيّ في قصيدته؛ وهــو الرّدّ على عمرو بن كلثوم، والتّعريض بالتّغلبيّين أعداء قومه، والفخر بقومه.

وهذا شاعر آخر هو بشر بن أبي خازم؛ يقول في قصيدة له:

تعنّى القلبَ مــــن سلمى عناءُ * فما للقلــبِ مُذْ بانوا شفـــــاءُ

وآذن أهـــــلُ سلمى بارتحالٍ * فمــا للــقلبِ إِذْ ظَعنوا عــــزاءُ

فلمّا أدبـــــروا ذَرَفت دموعي * وجهلٌ من ذوي الشّــيــْبِ البُــكاءُ

كأنَّ حمولهــــم لمّا استــقــلّوا * نخيلُ مُــــحَــلّمٍ فيــها انــحناءُ

وفي الأظعانِ أبكـــــار وعونٌ * كعين السّـــدرِ أوجَــهُــهُا وِضاءُ

عــفا منهنّ جــــزعُ عُرَيْتِناتٍ * فصارةُ، فالفــوارعُ، فالحــساءُ(٥٥)

وعلى عادة بعض الشّعراء؛ بدأ بشر قصيدته بذكر الحبيبة "ســلمى"، ومــا يعانيه من الوجد بسبب نأيها، ورحيلها مع أهلها، ولم يمنعه الشّيب مــن البكــاء على فراقها.

ثمّ وصف الظّعائن، وشبّههنّ ببقر الوحش، وهوادجهنّ بالنّخيل، وذكر مــن **الأماكن:** جزعُ عُرَيْتِناتٍ، فصارةُ، فالفوارعُ، فالحساءُ..

وقال في وقعة كانت في بني سعد بن زيد مناة، وبني حنظلة:

تَعَنّاك نَصْبٌ من أُمَيْمة مُنْصِبُ * كذي الشَّوْقِ لمّا يَسْلُهُ وسيــذهبُ

رأى دُرّةً بــضاء يحفــلُ لونَهـــا * سُخامٌ كغِرْبان البريــر مُقَــصَّبُ(٥٦)

بأحسن منها إذا تراءت وذو الهوى * حزينٌ ولــكنّ الخــليط تجنبــوا(٥٧)

لئن شُبَّت الحربُ العوان التي أرى * وقد طـال إيـعادٌ بهـا وترَهُّـبُ
لتَحْـتَمِلْن مِـنكم بليـلٍ ظعينـةٌ * إلى غير موثوقٍ من العزّ تهرُبُ(٥٨)

نرى في هذه الأبيات الدَّور الّذي تلعبه البيئة في حياة العربـيّ، وتـضطرّه إلى الظَّعن وهجرة المكان؛ ذلك أنّه قد تجتمع أكثر من قبيلة، أيّام الكـلأ، فـي المكان الواحد، وتنشأ بينهم ألفة، ثمّ يتفرّقون بعد انتهاء الموسم. كمـا يـصرّح الشّاعر بسبب آخر للظَّعن وهو الحروب.

وقال في مقدّمة قصيدة؛ يهجو بها أوس بن حارثة:

تغيَّـرت المنـازلُ بالكثيبِ * وعفّى آيَـها نـسجُ الجنوب
منـازل مِن سُليمى مُقْفـراتٍ * عـفاهـا كلُّ هطّالٍ سـكـوبِ
وقفـت بها أسائلها ودمعي * عـلى الخدّين في مثل الـغروب
نأت سلمى وغيَّـرَها التّنـائي * وقد يسلو المُحِبُّ عن الحبيـبِ(٥٩)

ونرى هنا أنّ سبب الظَّعن، ورحيل المحبوبة؛ هو الجدْب وانعدام المطـر؛ ولعلّ تشبيه الشّاعر لدموعه بالماء الّذي ينسكب من الدَّلو العظيمة؛ مـا هـو إلا صدىً لتلك الصّورة.

وقال في مدح عمرو بن أمّ إياس:

أطلالُ مَيّةَ بالتّلاع فَـمِـثْـقـبِ * أضحـت خلاءً كاطّراد المذهَبِ
ذهب الأُلى كانوا بهنّ فـعادنـي * أشجانُ نصْبٍ للظّعـائن مُنْـصبِ(٦٠)
فانهلّ دمعي في الـرداء صـبابةً * إثْـر الخـليط وكنت غيـرَ مُغَلّـبِ
فكـأن ظُعْـنهمُ غـداة تحمّلـوا * سُفُنٌ تكـفَأ فـي خلـيجٍ مُعْـربِ
ولقد أسَلّي الهمّ حـين يعـودني * بنجاء صادقة الهواجر ذِعْـلِـبِ(٦١)

وهنا أيضا يشير الشّاعر ثانية إلى دور البيئة في رحلة الظَّعــائن، والّتــي يشبّهها بالسّفن، وهو تشبيه يصوّر رغبة العربيّ في تحوّل الصّحراء إلى بحــر من الماء.

ويكشف الشّاعر هنا عن الصّراع على مواطن الماء والكلأ فــي البيئــة الصّحراويّة، فهو يقول إنّه سيمنع بني سعد أن تنــزل فــي جــزع عريتنــات، وعَيْهم، وقد وصف هذه الأمكنة بالخصب، ووفرة المطر، وأنّ الإبل تسمن فيها وتنتفخ، ويفتخر بأنّ قومه يستبيحون ما يشاءون من خــصيب الأرض؛ دلالــة على عزّهم وسؤددهم.

ومن شعر علقمة بن عبدة؛ قصيدة له افتتحها بالحديث عن نــأْي الحبيبــة، وبكائه لفراقها؛ يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استودِعتَ مكتومُ * أمْ حبلُها إذ نأَتْك اليــوم مصرومُ

أمْ هل كبيــرٌ بكى لم يقْضِ عَبْرتَهُ * إِثْرَ الأحبّة يــوم البَيْنِ مَشْكومُ[٦٢]

ولا يتوقّف هنا ليقول أكثر ممّا قاله في هذين البيتين، فينتقل إلــى وصــف ظعن الحبيبة؛ ولعلّ في تلك السّرعة ما يدلّ على أنّ رحلة الظَّعائن كانت تحدث بصورة مفاجئة وسريعة؛ فيقول إنّه لم يعلم إلا ساعة تجهيز الجِمــال للرّحيــل؛ قُبيل الصُّبح؛ حيث حُمّلت عليها الهوادج، وقد جُلّلت بثيــاب موشّــاة بــالحُمْرة؛ تحسبها الطّيور لحماً، فيقول:

لم أدْرِ بالبيْنِ حتّى أَزْمَعوا ظَعناً * كُلُّ الجِمالِ قُبَيْــلَ الصُّبْحِ مَزْمومُ

ردّ الإماءُ جِمال الحيِّ فــاحتملُوا * فــكُلُّها بالــتَّــزيــديات مــعْكومُ

عَقْلاً ورَقْماً تظَلُّ الطَّيْر تخطَــفُهُ * كأنّه من دَمِ الأجــوافِ مَــدْمومُ[٦٣]

ثمّ وصف الحبيبة (الظّعينة) في هودجها، فشبّهها بالأُتْرُجّة؛ وهـي فاكهـة طيّبة الرّائحة، وبالمسك في رائحته الّتي تفوح بشدّة، وتنتشر في المكـان حتّـى ليشمُّها المزكوم، وشبَّه عينَه بالدّلو الّتي يفيض منهـا المـاء؛ لكثـرة دموعـه وسيلانها؛ إذ يقول:

يحْمِلْن أُتْرُجَّةً نَضْخُ العبير بهـا * كأنَّ تَـطْيابَها في الأنْفِ مشـمومُ

كأنّ فأرَةَ مِـسْكٍ فـي مفارقهـا * للباسِطِ المُتَعاطي وهـو مزْكومُ

فالعيْنُ منّي كأن غَرْبٌ تَحُطُّ بـهِ * دَهْماء حاركها بالقِتْبِ محـزومُ(٦٤)

الخاتمة

وهكذا يمكننا القول إنّ الظّعينة؛ هي نتاج طبيعيّ لصراع العربيّ مع البيئـــة الصحراويّة القاسية؛ الّتي تضطره إلى الارتحال من مكان إلى آخر، وصـــراعه مع غيره، حيث تفتقر الحياة إلى الأمن، ويسود فيها القويّ.

وكان طبيعيّاً أن تحظى المرأة باهتمام الرّجل ورعايته، وأن يـــستميت فـــي الدّفاع عنها، وحمايتها، وتوفير أسباب الرّاحة لها؛ ذلك أنّها العنصر الأضـــعف في حومة هذا الصّراع، فحرص على أن تكون دائماً إلى جانبه وأمام عينيـــه لا تفارقه؛ لا في السّلم ولا في الحرب، لا يشغله عنها شاغل.

ولعلّ ابتداع الهودج مركباً خاصّاً بالمرأة، وإطلاق اسم (الظّعينة) عليهـــا، حيناً، وعلى الهودج حيناً آخر، وتخصُّص أشدّ الفرسان بحماية الظّعينة، ويلقّـــب بها –حامي الظّعينة–؛ ما هو إلا دليل على ذلك الاهتمام البالغ. ويبلـــغ الأمـــر الغاية؛ فتتصدّر المرأة مقدّمة القصيدة الجاهليّة، و تصبح المرأة رمزاً للخـــصب والحياة، وموضوعاً للحبّ، والشّوق، والمناجاة.

هذه هي المرأة، وهذا هو مكانها ومكانتها، وهذا هو قدْرها وقَدَرُها، وهـــذه هي قيمتها وقامتها في القصيدة الجاهليّة.

وبهذا نختم دراستنا هذه؛ آملة أن أكون قد وُفّقت في عَرْضِها، وسُدّدْت فـــي اختيار أحسن ما فيها.

ملحق - تراجم الشّعراء

(١) امرؤ القيـس

اسمه حُنْدُج، وقيل عَدِيّ، وقيل مُلَيْكة، ولقِّب بذي القروح، وبالملك الضّلّيل، وبامرئ القيس، وطغى هذا اللّقب على اسمه، وبه عُرف.

أبوه حُجُر ملك غطفان وأسد، وأمّه فاطمة بنت ربيعة أخت المهلهِل، نشأ في نجدٍ، من أسرةٍ توارثت الملك، ودانت لها قبائل العرب من ربيعة ومُضر، فمضى يتردّد بين أسرة أبيه، وأسرة خاله؛ مزهوّاً بنفسه وبملك أبيه، غارقاً في لذائذ الدّنيا.

وعندما تمادى امرؤ القيس في ضلاله؛ طرده أبوه، فلم يزد الطّرد مجونه إلا اطّراداً؛ إذ راح ينفق عمره في الشّهوات، ويعايش من شذَّ وتصعلك.

وبينما هو غارق في لذّاته؛ وصله خبر مقتل أبيه، فقال: "ضيّعني صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً؛ لا صحْوَ اليوم، ولا سُكر غداً، اليوم خمْر، وغداً أمر". وصارت مقولته هذه مثلاً عند العرب.

وسعى إلى الثّأر لأبيه، فقاتل قبيلة أسد، وقتل منهم الكثير، واستعان بكثير من الأمراء، وأخيراً تحوّل إلى قيصر، فأحسن وفادته؛ ولكنّه لم يُعنه على استرداد ملكه.

ويُقال: إنّه أصيب بالجدريّ في عودته، فمات. وقيل: إنّه مات بسُمٍّ سرى في جسمه من حلّة مسمومة؛ خلعها عليه عظيم الرّوم[٦٥].

(٢) زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن أبي سلمى، من مُزينة. كان مشهوراً برزانته وحبّه للسّلام، وقد نظم معلّقته؛ على أثر الحرب الّتي دارت رحاها بين عبس وفزارة؛ بسبب

سباق داحس فرس قيس بن زهير سيّد بني عبس، والغبراء فرس حمل بن بدر، سيّد بني غطفان.

وقد طالت هذه الحرب وكثر فيها القتلى؛ حتّى أصلح بين المتحاربين هـرم بن سنان، والحارث بن عوف، ودفعا الدّيات من مالهما، وقيل إنّها بلغت ثلاثـة آلاف بعير. فنظم زهير معلّقته يمدح بها المصلحين لحقنهما الدّماء(٦٦).

(٣) عمرو بن كلثوم

هو أبو عبّاد، عمرو بن كلثوم التّغلبيّ، وأمّه ليلى بنت المهلهل. كان أعـزّ النّاس، وأكثر العرب ترفّعاً؛ ساد قومه وهو في الخامـسة عـشرة مـن سـنّه. ومعلّقته هي الخامسة في المعلقات، أنشأ قسماً منها في حضرة الملك عمرو بـن هند، وعنده الوفود من قبيلتي تغلب وبكر، وكان يرأس التّغلبيّـين عمـرو بـن كلثوم، ويرأس البكريّين النّعمان بن هرم اليشكريّ.

أمّا القسم الآخر؛ فقد زاده عليها بعد قتله عمرو بن هند على أثر محاولة أمّ الملك أن تستخدم ليلى أمّ عمرو بن كلثوم. ولمعلّقته قيمة تاريخيّة؛ فهـي تـدلّنا على حالة العرب من حيث الدّين، والاجتماع، والعادات، والصّناعات(٦٧).

(٤) عنترة بن شدّاد

هو عنترة بن شداد العبسيّ، من أهل نجد، ومن فحـول شـعراء الطّبقـة الأولى. كانت أمّه أَمَةً سوداء؛ يقال لها زبيبة، وقد سرى إليـه الـسّواد منهـا، وكانت العرب تعيّره بذلك؛ إذ يقول:

يعيبون لوني بالسّواد جهالـــــة * ولولا سواد اللّيل ما طلع الفجـــر

وكان أبوه ينكره، فأقام زمانه يرعى الإبل مع العبيد؛ حتّى أغـار بعـض الأحياء من طيء على عبس، فأصابوا منهم، وقتلوا، وسبوا نساء كثيرة، وكـان عنترة معتزلاً؛ فتقاعس عن المدافعة. فقال له أبوه: ويك يا عنترة؛ كـرّ. فقـال:

العبد لا يحسن الكرّ؛ وإنّما يحسن الحَلْبَ والصّرّ. فقال له: كرّ وأنت حرّ! فقام، ولحق بالسّريّة المُغيرة، وهزمها، وردَّ الغنائم والسّبايا، فادّعاه أبوه بعد ذلك، واشتهرت شجاعته بين العرب.

وكان عنترة من أحسن العرب شيمةً، وأعلاهم همّةً، وأعزّهم نفساً. وكان مع شدّة بطشه؛ حليماً، كريماً، شديد النّخوة.

وكان عنترة يهوى ابنة عمّه عبلة، وقد تزوّجها بعد جهد طويل، وعاش تسعين سنة، ومات قبل ظهور الإسلام بسبع سنوات(٦٨).

(٥) لبيد بن ربيعة

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامريّ، ويكنى أبا عقيل، وكان يقال لأبيه ربيعة المقترين؛ لجوده وسخائه. قتله بنو أسد في الحرب الّتي كانت بينهم وبين قومه.

ولبيد أحد شعراء الجاهليّة المعدودين فيها، والمخضرمين، فقد أدرك الإسلام، وأسلم.

وهو من أشراف الشّعراء المجيدين الفرسان المعمّرين؛ يقال إنّه عمّر مائة وخمساً وأربعين سنة(٦٩).

(٦) الحارث بن حلّزة اليشكريّ

هو الحارث بن حلّزة، من بني بكر، كان شديد الفخر بقومه؛ حتّى ضُرب به المثل؛ فقيل: أفخر من الحارث بن حلّزة. ومعلّقته هي السّابعة في المعلّقات أنشدها في حضرة الملك عمرو بن هند؛ ردّاً على عمرو بن كلثوم، وغضباً لقومه. وفي معلقته من الدّهاء في التّعريض بالتّغلبيّين، وسرد الحوادث التّاريخيّة، ومن الحكمة والرّزانة؛ ما يجعلها في مصافّ الشّعر الخطابيّ، وأفضل مثالٍ للشّعر السّياسيّ في العصر الجاهليّ(٧٠).

(٧) بشر بن أبي خازم

هو بشر بن خازم من بني أسد. شاعر فارس فحل جاهليّ قديم؛ شهد حرب أسد وطيّئ، وشهد هو وابنه نوفل الحلف بينهما، وكان بشر في أوّل أمره يهجو أوس بن حارثة بن لأم الطّائيّ، وذكر أمه في بعض هجوه؛ فأسرته بنو نبهان من طيّئ، فركب أوس إليهم فاستوهبه منهم، وكان قد نذر ليحرقنّه إن قدر عليه، فقالت له أمّه سعدى: قبّح الله رأيك، أكرم الرّجل وخلّ عنه؛ فإنّه لا يمحو ما قال إلا لسانه، ففعل.فجعل بشر مكان كلّ قصيدة هجاء قصيدة مدح له[٧١].

(٨) علْقمة بن عَبَدة

هو علقمة بن عَبَدَة؛ بفتح الباء؛ شاعر جاهليّ مُجيد، وكان من صدور الجاهليّة وفحولها، وهو علقمة الفحل؛ لُقّب بذلك؛ لأنّه نازع امرأ القيس الشّعر، وكان صديقاً له، ورضيا حكم أمِّ جندب امرأة امرئ القيس، فقال كلّ منهما قصيدة في وصف الخيل؛ فحكمت لعلقمة، فغضب امرؤ القيس، وقال:ما هو بأشعر منّي؛ ولكنّك له وامق. فطلّقها، فخلف عليها علقمة[٧٢].

المراجع والتّوثيقات

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهليّ، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م، ٦٢.
(٢) دريد بن الصّمّة، ديوان دريد بن الصّمّة، تحقيق عمر عبد الرّسول، ط. دار المعارف، مصر،١٩٨٠م، ص٩٦، والمرزوقيّ، ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين، وعبد السّلام هارون، لجنة التّأليف والتّرجمة، القاهرة،١٩٥١م، ج٢ ص٨٢٥.نلحمه: نطعمه اللّحم. الوتر: الثّأر، واترين: قاتلين ومسبّبين الوتر.
(٣) انظر –غير مأمور–: المفضّل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (ت: نحو ٢٩٠هـ)، الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطّحاويّ، مراجعة: محمّد عليّ النّجّار، ط١، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبيّ، ١٣٨٠هـ، ج١ ص٩٣– ٩٦، وأبو عمر، شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عبد ربّه بن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربّه الأندلسيّ (ت: ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٤هـ، ج٦ ص٦٩– ٩٣.
(٤) انظر –غير مأمور–: المفضّل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (ت: نحو ٢٩٠هـ) الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطّحاويّ، مراجعة: محمّد عليّ النّجّار، ط١، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبيّ، ١٣٨٠هـ، ج١ ص٢١٩– ٢٢٤، وأبو عمر، شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عبد ربّه بن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربّه الأندلسيّ (ت: ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٤هـ، ج٦ ص١٧– ١٩.
(٥) حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَنيّ، أبو عبد الله (ت: ٤٨٦هـ)، شرح المعلّقات السّبع، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ص١٠٦. السّحيل: المفتول على قوّة واحدة. المبرم: المفتول على قوّتين أو أكثر. التّدارك: التّلافي. التّفاني: التّشارك في الفناء. منشم: اسم امرأة عطّارة.
(٦) زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير، شرح أبي الحجّاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم النّحويّ،١٩٨٨م، ص٩٦.

(٧) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٧٩. القطين: الخدم. القتو: خدمة الملوك.

(٨) شوقي ضيف، العصر الجاهليّ، مرجع سابق، ص٧٢.

(٩) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني، ط. دار الكتب، ج١٠ ص١٣.

(١٠) وكان أن أغار السليك عليهم ولم يظفر منهم بفائدة، وعلم أنّه مأخوذ، فخاتلهم وقصد أقرب بيوتهم ودخله، فوجد امرأة يقال لها "فكيهة"، فاستجار بها، فأجارته، وامتشقت سيفاً، ودافعت عنه، فتكاثروا عليها، فكشفت خمارها، وصاحت بإخوتها، فجاؤوا، ودافعوا عنها وعنه؛ حتّى نجا من القتل، فقال في ذلك:

لعمرُ أبيك والأنباء تنمي * لنعم الجار أخت بني عُوارا

من الخفرات لم تفضح أباها * ولم ترفع لإخوتها شنارا

(١١) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص٦١.

(١٢) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص ٩٩.

(١٣) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٩١.

(١٤) وكانت تشهد عكاظاً، وتدور في السّوق وهي في هودج على جمل، وقد وضعت علامة على هودجها، ثمّ تقوم بإنشاد الشّعر، فتؤثّر في من تمرّ به.

(١٥) سورة التّكوير: الآيتان ٨ و ٩.

(١٦) سورة النّحل: الآيتان ٥٨ و٥٩.

(١٧) وربيعة بن مكدّم هذا ممّن تخافه صناديد الفرسان، وله قصة مشهورة مع عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ وخلاصتها أنه أغار عَلَى حَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ، بَلَغَهُ أَنَّ رِجَالَهُمْ خُلُوفٌ؛ فخدعته إحدى الجواري ببكائها حتى جمعت بينه وبين أحد فرسان الحي، فتناشدا فخرا وتبادلا ضربا بالسيف فعرف عمرو أنه ربيعة بن مكدم، وخيره بينت ثلاث خصال: القتال والمصارعة والمسالمة، فاختارا المسالمة. انظر: [الزّبير بن بكّار بن عبد الله= =القرشيّ الأسديّ المكّيّ (ت: ٢٥٦هـ)، الأخبار الموفّقيّات، تحقيق: سامي مكّي العاني، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ج١ ص١٨٥- ١٨٦]، وله

قصة أخرى مع دريد بن الصّمّة؛ فقد خرج في فوارس من بني جشم؛ حتّى إذا كانوا في وادٍ لبني كنانة؛ لمحوا رجلاً في ناحية الوادي ومعه ظعينة (امرأته)، فقال دريد لفارس من أصحابه: صِحْ به: خلّ الظعينة، وانج بنفسك، فحمل على الفارس، فصرعه، وأخذ فرسه، فبعث دريد فارساً ثانيا وثالثا ففعل بهما مثل ما فعل بالأول، فقرر دريد نفسه اللّحاق بالرّجل، فوجد رمحه انكسر فأعطاه رمحه وثبط عنه قومه وأنشد دريد:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * حامي الظّعينة فارساً لم يُقتل

ثمّ لم تلبث بنو كنانة (قوم ربيعة) أن أغارت على بني جشم (قوم دريد)، وأسروا دريد بن الصّمّة، فأخفى نفسه؛ فلمحته امرأة منهم فعرفته فلمّا أصبحوا؛ أطلقوه. (دريد بن الصّمّة، ديوان دريد، مرجع سابق، ص ١٥١، قصيدة رقم ٤٩).

(١٨) محمّد بن مكرّم بن عليّ، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاريّ الرّويفعيّ الإفريقيّ (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، مادّة (ظعن)، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ج١٣ ص٢٧٠ – ٢٧٢.

(١٩) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، اعتنى به وشرحه: عبد الرّحمن المصطاويّ، ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٣٥. وابن حجّة الحمويّ، تقيّ الدّين أبو بكر بن عليّ بن عبد الله الحمويّ الأزراريّ (ت: ٨٣٧هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، طبعة أخيرة، دار ومكتبة الهلال، ودار البحار–بيروت، ٢٠٠٤م، بيضة خدر: يعني امرأة كالبيضة في صيانتها؛ لا يرام خباؤها؛ لعزّتها.
وابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٤ ص٢٣٠. الخِدْرُ: سِتْرٌ يُمَدُّ لِلْجَارِيَةِ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، ثُمَّ صَارَ كلُّ مَا وَارَاكَ مِنْ بَيْتٍ وَنَحْوِهِ؛ خِدْراً، وَالْجَمْعُ: خُدُورٌ، وأَخْدارٌ، وأَخادِيرُ جَمْعُ الْجَمْعِ؛ وأَنشد: حَتَّى تَغَامَزَ رَبَّاتُ الأَخادِيرِ.

(٢٠) مصطفى صادق بن عبد الرّزّاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرّافعيّ (ت: ١٣٥٦هـ)، وحي القلم، ط١، دار الكتب العلميّة، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، ج٣ ص٢٣١.

(٢١) عنترة بن شدّاد بن معاوية بن قراد العبسيّ (ت: ٦٠٨م)، ديوان عنترة، مطبعة الآداب، بيروت، ١٨٩٣م، ص٣٥.

القبّة: غرفة مستورة. السُّهى: نجم ضئيل النّور جدّاً. الفرقد: نجم القطب الشّماليّ ظاهر النّور جدّاً.

(٢٢) أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل الأسديّ الملقّب بالأعشى (ت: ٦٢٥م- ٧هـ)، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق الدّكتور محمّد محمّد حسين، ط. مكتبة الآداب، مصر، ص٨٦. الكِلَل: مفردها:الكِلَّة: وهو السّتر الرّقيق يُنصَب على الهودج. انظر -غير مأمور-: الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ج١ ص١٣٦.

(٢٣) سورة النّحل: ٥- ٦.

(٢٤) سورة الغاشية: ١٧.

(٢٥) المفضّل بن محمّد بن يعلى بن سالم الضّبّيّ (ت: نحو ١٦٨هـ)، المفضّليّات، المثقّب العبديّ، قصيدة رقم ٧٦، تحقيق أحمد شاكر، وعبد السّلام هارون، ط٤، دار المعارف، مصر، ص٢٩١.

(٢٦) المفضّل الضّبّيّ، المفضّليّات، المثقّب العبديّ، قصيدة رقم ٧٦، مرجع سابق، ص٢٩١.

(٢٧) أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهم جفّال، ط١، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ج٢ ص٢٠٥، وانظر -غير مأمور- ما بعدها؛ ففيه إفاضة في شرح معانيها.

(٢٨) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ٢٠٠٤م.

(٢٩) أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور (ت: ١٣٤٨هـ)، تصحيح لسان العرب، ط١، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ج١ ص١٣٦- ١٣٧.

(٣٠) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٥ ص٤١٦.

(٣١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج١٢ ص٦٤٥.

(٣٢) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٨، والزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٤.

(٣٣) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٨، والزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٤.الخدر : الهودج، والجمع خدور. الغبيط : ضرب من الرِّحال. والغبيط: هو الهودج الّذي يجعل على ظهر البعير، ويقصد منه أن تجلس فيه المرأة وهي في ستر.

(٣٤) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص٩٩. حومانة الدّرّاج فالمتثلّم: موضعان. الرّقمتان: حرّتان؛ إحداهما قريبة من البصرة، والأخرى من المدينة. العين: البقر العين. والعين: الواسعات العيون. الآرآم: جمع رئم؛ وهو الظّبي الأبيض. الأطلاء: جمع الطّلا؛ وهو ولد الظّبية. الحجّة: السّنة. اللّأي: المشقّة. الأثافي: حجارة توضع القدر عليها. السّفع: السّود. المعرّس: أصله المنزل، ثمّ استعير للمكان الّذي تنصب فيه القدر. النّؤي: نهير صغير حول البيت. الجذم: الأصل.

(٣٥) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٠٢. جرثم: ماء بعينه. القنان: جبل. أنماط: جمع نمط وهو ما يبسط من صنوف الثّياب. العِتاق: الكرام. الوراد: جمع وِرد وهو الأحمر. المشاكهة: المشابهة والمقاربة السّوبان: الأرض المرتفعة. الدّلّ والدّلال: النّعمة. بكر: سار بكرة. استَحَرَ: سار سَحَراً. وادي الرّسّ: واد بعينه. اللّطيف: المتأنّق الحسن المنظر. التّوسّم: التّفرّس. الفتات: التّقطيع. الفنا: عنب الثّعلب. العهن: الصّوف. الزّرقة: شدّة الصّفاء. الجمام: ما اجتمع من الماء. وضع العصيّ: كناية عن الإقامة.

(٣٦) انظر –غير مأمور–: أحمد بن عبد الوهّاب بن محمّد بن عبد الدّائم القرشيّ التّيميّ البكريّ، شهاب الدّين النُّوَيْرِيّ (ت: ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ج٥ ص١٧٩.

(٣٧) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٣٨) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، ص١٦٦.الصّبن: الصّرف. يقول: صرفتِ الكأسَ عنّا يا أمَّ عمرو، وكان مجرى الكأسِ على اليمين، فأجريتِها على اليسار.

(٣٩) يا ظعيناً: أراد يا ظعينة. الصّرم: القطيعة.

(٤٠) الكريهة: من أسماء الحرب.

(٤١) الكاشحين: الأعداء. العيطل: الطّويلة العنق من النّوق. الأدماء: البيضاء. رَخْصا: لينا. حَصاناً: عفيفة.

(٤٢) عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة، مرجع سابق، ص٣٥ ، والزَّوْزَنيّ، شـــرح المعلّقـــات السّبع، المعلّقة ص٨٠، مرجع سابق، ص١٩١. الجواء هنا: اسم موضع بعينه .

(٤٣) الزّائرون: الأعداء. العنيزتين والغيلم: أسماء أماكن.

(٤٤) الإزماع: توطين النّفس على الشّيء. الرّكاب: الإبل. الأسحم: الأسود.

(٤٥) راعه روعاً: أفزعه. الخِمخِم: نبت تُعلف به الإبل. وهو آخر ما يبس من النّبات.

(٤٦) عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة، مرجع سابق، ص٨١. المُقبّل: موضع التّقبيـــل (الفـــم). تاجر: أراد به العطّار. العوارض: الأسنان.

(٤٧) لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد، شرح الطّوسيّ، تحقيق: حنّا نـــصر الحتّـــى، ط. الكتـــاب العربيّ، ١٩٩٣م، ص١٩٩، والزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص٢٥. عفت الدّيار: انمحت. مِنىً: اسم مكان، وهو غير منى الحرم. الغول والرّجام: جبلان. المدافع: أماكن يندفع عنها الماء. الرّيّان: جبل معروف.

(٤٨) مرابيع النّجوم: الأنواء الرّبيعيّة. الودق: المطر. الجوْد: المطر التّامّ العـــامّ. الرّهـــام: جمع رهمة وهي المطرة الّتي فيها لين. السّارية: السّحابة الماطرة ليلا. غاد: السّحاب يلبس آفاق السّماء بكثافته وتراكمه. الإرزام: التّصويت.

(٤٩) الأيهقان: الجرجير البرّيّ. الجلهتان: جانبا الوادي. العين: واسعات العيون. الطّلا: ولد الوحش. العوذ: الحديثات النّتاج.

(٥٠) جلا: كشف. الزّبر: الكتب.الرّجع: التّرديد والتّجديد. النّؤور: ما يتّخذ من دخان السّراج والنّار.

(٥١) الظُّعْن: جمع الظعينة. الزّجل: الجماعات. النّعاج: إناث بقر الوحش. وجرة: موضـــع بعينه. الأرآم: جمع رئم: وهو الظّبي الخالص البياض.

(٥٢) نَوار: اسم امرأة يشبّب بها. الرّمام: قطعة من الحبل خلقة ضعيفة. مُرّيّة: منسوبة إلـــى مرّة. فيد: بلدة معروفة.

(٥٣) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٥٤) الدَّلَهُ: ذهابُ العقل.

(٥٥) بشر بن أبي خازم الأسديّ، ديوان بشر، قصيدة رقم١، عُني بتحقيقه د. عــزّة حــسن، مطبوعات مديريّة إحياء التّراث القديم، دمشق ١٩٦٠م، ص٥١. تعنّى القلب: أتعبــه وأشقاه. بانوا: رحلوا. آذن: أعلم. ظعنوا: ارتحلوا. مُحلّم: نهر بــالبحرين. الحمــول: الإبل عليها هوادج النّساء. الأظعان: جمع الجمع من الظّعينة. العون: جمع العَــوان؛ وهي المرأة الّتي ليست بالكبيرة ولا الصّغيرة، أو الّتي قد كان لها زوج. العين: وهي الواسعة العين، يريد بقر الوحش، السّدر: شجر النّبق.

(٥٦) بشر بن أبي خازم الأسديّ، ديوان بشر، قصيدة رقم٢، مرجع سابق، ص٥٧.
درّة بيضاء: يريد امرأة بيضاء. يحفل لونها: يجلوه ويزيــده بياضــاً. الــسّخام مــن الشّعر: الأسود. البرير: النّضيج من ثمر الأراك. المقصّب: الشّعر الملتوي المجعّــد. يريد أنّ شعرها الأسود يزيد بياضها بياضاً.

(٥٧) الخليط: الصّديق المخالط، والقوم الّذين أمرهم واحد؛ ذلك أنّ العرب كــانوا ينتجعــون أيّام الكلأ، فتجتمع منهم قبائل شتّى في مكان واحد، فتقع بينهم ألفــة؛ فــإذا افترقــوا ورجعوا إلى أوطانهم؛ ساءهم ذلك.

(٥٨) الحرب العوان: الشّديدة.

(٥٩) بشر بن أبي خازم الأسديّ، ديوان بشر، قصيدة رقم٤، مرجع سابق، ص٧٢.
عفّى: طمس. آية: علامة. الجنوب: ريح الجنوب. الغروب: جمع الغرب؛ وهو الدّلو العظيمة.

(٦٠) بشر بن أبي خازم الأسديّ، ديوان بشر ، قصيدة رقم ٧، ص٨٤.
التّلاع: موضع، جمع تلعة وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطــون الأرض. مثقب: موضع. المذهب: جلد فيه خطوط مذهبة بعضها في إثر بعض. النّصب: التّعب والشّقاء.

(٦١) تكفأت السّفينة في جريها: إذا تمايلت. المغرب: المملوء. النّجاء: السّرعة في الــسّير. صادقة الهواجر: قويّة على السّير في الهواجر؛ حين اشتداد الحــرّ. الــذّعلب: النّاقــة السّريعة.

(٦٢) المفضّل الضبّيّ، المفضّليات، قصيدة رقم ١٢٠، مرجع سابق، ص٣٩٧. حبلها: وصلها. مصروم: مقطوع.

(٦٣) أزمعوا: عزموا. ردّ الإماء: ردن الجمال من الرّعي للارتحال، وخصّ الجمال دون النّوق؛ لأنّ الظّعائن يحملن على الذّكور؛ لأنّها أشدّ وأذلّ نفساً. التّزيّديّات: ثياب منسوبة إلى تزيّد بن حيدان بن قضاعة.

(٦٤) الأترجّة: فاكهة طيّبة الرّائحة. النّضخ: ما كان رشّاً. المشموم: المسك. الغرب: جلد ثور يُتّخذ دلواً. دهماء: ناقة.

(٦٥) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، التّرجمة، مرجع سابق، وانظر –غير مأمور–: ابن قتيبة، طبقات فحول الشّعراء، مرجع سابق، ص٥١، والأصفهانيّ، الأغاني، مرجع سابق، ج٩ ص٧٧.

(٦٦) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص٧٦.

(٦٧) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٦٨) عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة، مرجع سابق، ص٢.

(٦٩) لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد، التّرجمة، مرجع سابق، وانظر أيضاً: أبو زيد القرشيّ، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص٦٩، وابن سلام الجمحيّ، طبقات فحول الشّعراء، مرجع سابق، ص٤٣، وابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، مرجع سابق، ج١ ص٢٨٠، والأصفهانيّ، الأغاني، مرجع سابق، ج١٥ ص٢٨٩، والزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص٩٠.

(٧٠) الزَّوْزَنيّ، شرح المعلّقات السّبع، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٧١) المفضّل الضبّيّ، المفضّليّات، مرجع سابق، ص٣٢٩، وبشر الأسديّ، ديوان بشر، التّرجمة، مرجع سابق.

(٧٢) المفضّل الضبّيّ، المفضّليّات، مرجع سابق، ص٣٩٠.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٠٦٠
المبحث الأوّل	١٠٦٦
١- النّظام الاجتماعيّ في العصر الجاهليّ	١٠٦٦
٢- مكانة المرأة في المجتمع الجاهليّ	١٠٦٩
عاداتٌ ذميمةٌ	١٠٧١
المبحث الثاني **الظَّعْن – الظَّعينة- الهَوْدج**	١٠٧٣
بناء الهَوْدج وصناعته	١٠٧٧
زينة الهودج	١٠٧٨
الظَّعينة في الشِّعر الجاهليّ	١٠٨٠
الخاتمة	١٠٩٧
ملحق – تراجم الشّعراء	١٠٩٨
المراجع والتّوثيقات	١١٠٢
فهرس الموضوعات	١١١